أسرار ومعاني

أسماء الأنبياء

عليهم السلام

في القرآن الكريم وصحيح السنة

إعداد الأستاذ

أحمد محمد المغيبي



دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩


بسم الله الرحمن الرحيم

أسرار ومعاني

أسماء الأنبياء

عليهم السلام

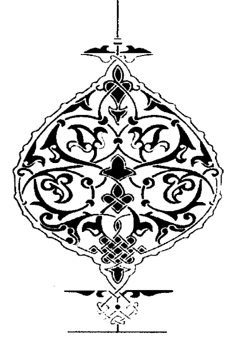
في القرآن الكريم وصحيح السنة



رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا
إنَّكَ أنتَ السَّميعُ العليمُ

رقم الإيداع
٢٠٠٧/١٨٦١٤

الترقيم الدولي
977-331-421-9



دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
١٩،١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤١١٩١٠ - ٥٢٢٢٠٠٢
E-mail: dar_aleman@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

نسأل الله حسن الخاتمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على من أوتى القرآن الكريم، فخضعت لإعجاز آياته الأعناق، وعنت لبلاغة منطقه الوجوه، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

وبعد.. إن المسلم مأمور بأن يتدبر آيات الله الكريمة، وأن يعمل عقله وفكره ووجدانه في معانيها السامية، لأن أسرارها لا تنتهي إلى يوم القيامة.

جاء في بعض كتب التفاسير أن أسلوب التدوين للقرآن توقيفي، بمعنى أن نطق الكلمة بحسب المعنى في السياق للقرآن.

ففي آية «الابتلاء»؛ ﴿**وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾ (البقرة: ١٢٤)، سنجد أن كلمة ﴿**إِبْرَاهِيمَ**﴾ بدون الياء لبيان ما ابتلي به الخليل ﷺ، ولذا خلا الاسم من المد الملائم للتفخيم إذ الحال لا يلائمه.

وأما آية «الاصطفاء» فقد تم تدوين الياء كما هي: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ (آل عمران: ٣٣).

وهكذا في العديد من آيات القرآن، وكأن الرسم موجه للمعنى وشارح له.

وكان السؤال: ما دام الرسم شارحًا للمعنى، فلماذا لا يكون الاسم شارحًا له أيضًا؟ وبالرجوع إلى العديد من القواميس مثل: (مختار الصحاح)، و(لسان

العرب)، و(القاموس المحيط)، و(المعتمد)، وغيرها، وكتب التفاسير قديمًا وحديثًا، ومعاني كلمات القرآن، وجد أن معنى أسماء الأنبياء ـ عليهم السلام ـ بينته آيات كثيرة، فالاسم مطابق للمعنى وهو يطابق الأحداث، أي أنها تصدق بعضها بعضًا وتكمله، فتأتي منتظمة البناء ومنسقة التركيب، وهذا يعتبر من وجوه الإعجاز المتعددة والتي لن تنتهي إلى يوم القيامة.

فسبحان من أعطى هذا العطاء، وجعل هذا الكتاب الكريم كنزًا من الكنوز، إذا أردناه كنزًا للعقل وجدناه، وإذا أردناه كنزًا للروح وجدناه.

يقول تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٨).

لقد أنزل الله سبحانه القرآن بعلم، وجعل العلم الذي فيه حجة على الناس، ووعدنا أن بعض علومه ستنكشف على مر الزمان: قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ (ص: ٨٧-٨٨).

اللهم اغفر لوالديَّ وارحمهما كما ربياني صغيرا، اللهم اغفر لوالديَّ ووالديهما ولأصحاب الحقوق عليَّ، ولموتى المسلمين الذين شهدوا لك بالوحدانية ولنبيك محمد ﷺ بالرسالة وماتوا على ذلك.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (إبراهيم: ٤١)، وأترك القارئ الكريم يعيش بين دفتي الكتاب يقطف من ثماره، وهو ليس سردًا لأحداث قصص الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، وإنما هو ومضات مضيئة لسيرتهم العطرة.

وبالله التوفيق وعليه وحده قصد السبيل.

الكاتب الإسلامي

أحمد محمد أحمد المغيني

آدم عليه السلام
والترقي في منازل المعرفة

(الله) سبحانه وتعالى عزَّ ثناؤه وتقدست أسماؤه، لفظ الجلالة هو أصل الأسماء، وأولها، ومصدرها، كما أنه مصدر اللغات والألسنة، وقد ذكر ٢٦٩٩ مرة في القرآن وهو رقم لا يقبل القسمة على أي عدد لوحدانيته(١)، و(الله) اسم غير مشتق، لأنه الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية.

وهو الاسم الدال على الذات الإلهية، الجامع لصفات الربوبية، ولا يطلق على غيره ـ سبحانه وتعالى ـ، ولا يثنى ولا يجمع، ومن خصائصه إذا حذف منه حرف لم يتغير فهو: «الله، لله، له، إله، الهاء».

(الملائكة) هي كلمة إسلامية لم تستخدم في العربية قبل أن يرد ذكرها في القرآن، وأول ما ذكرت في سورة «المدثر» وهي من «مألك» ثم صارت «ملأك» والجمع «ملائكة»، ولم يذكر القرآن من أسمائهم سوى «جبريل وميكال».

(آدم) اسم سرياني وهو عند أهل الكتاب (آدام) بإشباع فتحة الدال، وهو التراب بالعبرانية تسمى (آدم) به، وقيل هو من أدمت بين الشيئين إذا خلطت بينهما لأنه كان ماء وطينًا فخلط دمًا.

(ابليس) فمن (أبلس) من رحمة الله سبحانه أي يئس منه، وكان اسمه (عزازيل) والجمع: أبالس وأبالسة ـ المعجم الوسيط ـ وقد ذكر في القرآن إحدى

---

(١) هذا العدد (٢٦٩٩) من الأعداد الأولية لا يقبل القسمة إلا على نفسه ويكون الناتج (واحدًا)، وفيه إشارة إلى الوحدانية وأنه سبحانه وتعالى «واحد» لا شريك له.

عشرة مرة، وأولها في سورة (ص) في سياق قصة آدم عليه السلام وإلزام الملائكة بالسجود تشريفًا له كقوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (ص: ٧٣-٧٤).

(الشيطان) كلمة عربية قديمة والأصل (شطن) بمعنى (بعد)، وإذا جاء معرفًا (الشيطان) فهو إبليس وإذا جاء منكر (شيطان) فهو واحد من جنس الشياطين.

وقد ذكر (الشيطان) في واحد وستين موضعًا، وأما الجمع (شياطين) فقد ذكر في ثمانية عشر موضعًا وهم من (الإنس والجن)، وشياطين الإنس أشد كيدًا وأعظم إفسادًا لأنهم يملكون مزيجًا من الشرور المرئية والغير مرئية.

(حواء وقابيل وهابيل) وهي من الأسماء التي لم ترد صراحة في القرآن، وقد سميت «حواء» بذلك لأنها أم كل حي، ويقول السيوطي في (الإتقان): «أنه لم يذكر اسمها لأنها معروفة وليس هناك غيرها في أول الخلق»، وهي من الفعل «حوى» لأن آدم احتواها بحبه وعطفه، وأما «قابيل» أي قايين بالسريانية ومعناه «تعتني».

و«هابيل» ومعناه «زائل» وقصته مع أخيه ترمز إلى الصراع العنيف بين قوتي الخير والشر، وكانت أول جريمة نكراء تحدث في الأرض أريق فيها الدم البريئ الطاهر.

وقد وردت قصة الخلق في القرآن كثيرًا، لتحذرنا من حيل الشيطان وأساليب خداعه بالوعود والأماني كما سيطر على آدم وزوجه - عليهما السلام - بالكلام المعسول والخداع بالحجج الباطلة، فاستجابا له وخالفا أمر ربهما سبحانه وتعالى، وهذا ما عبر عنه القرآن: ﴿فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ

وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (الأعراف: ٢٢)، «غره يغره غرارًا وغرورًا» أي خدعه وأطمعه بالباطل.

ومن فضله سبحانه على عباده أن بيَّن لهم أن من آمن وقام بحقوق العبودية كما جاءت في الكتب السماوية التي نزلت على الرسل، فإنه لا سلطان للشيطان عليهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ (النحل: ٩٩-١٠٠).

ومن أفضل النعم أنه ـ سبحانه ـ من لطفه ورحمته، يقبل التوبة لمن استغفر وأناب بالدعاء والاستغفار، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى وهذا منتهى العدل الإلهي، وليس كما تدعى الإسرائيليات بأن ميراث البشرية لخطيئة آدم عليه السلام لأنه أكل من شجرة الخلد، والتي أغرته على ذلك حواء وقد أغرتها الحية ودلتها على هذه الشجرة.

والقرآن يؤكد أن الشيطان هو الذي وسوس لهما معًا، وأنهما تابا وقبل سبحانه توبتهما: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف: ٢٣).

وهذا ينفي ما تقوله العقائد الفاسدة، كقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ٣٧)، أي أنه سبحانه ألهمه هذه الكلمات فدعا بها مع زوجه فقبل توبتهما، لأنه التواب على عباده والرحيم بهم.

ومن أهم الأسباب التي جعلت القرآن يقص علينا قصة الخلق في أكثر من موضع، وذلك لبيان أن خلق الكائنات يسير على نمط واحد لا يتغير بدايته زوجين (آدم من طين ثم حواء من ضلعه)، ومنهما انحدرت البشرية.

وهذا ما قرره العلم وبعد نزول القرآن بأكثر من ألف عام، وكما أخبر الحق سبحانه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يس: ٣٦).

﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾، أي من المخلوقات العجيبة الغريبة - كما يسمونها قديمًا - أو من الكائنات الحية الدقيقة والتي تعيش في المواد المتحللة العفنة والتي تحت الميكرسكوب في نقطة واحدة بالآلاف وكلها تتنفس وتتغذى وتتكاثر وتتحرك وتحس كأي كائن حي، وإن كانت بصورة بدائية بسيطة، سبحان الله . . !! ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون: ١٤).

ومن صور الإعجاز العلمي في القرآن أنه ينفي ما يسمى «الخلق العضوي» أو «التوالد بدون لقاح» وكان هذا الاعتقاد سائدًا لوقت قريب عند علماء الغرب، وجاء علمهم الحديث ليثبت خطأهم، ويؤكد ما أثبته القرآن بأنه ليس في مقدور أحد كائنًا ما كان أن يكون خالقًا - حاشا لله - لأي مخلوق ولو لهذه الكائنات الدقيقة، لأن الخلق هو قدرة اختص الله بها تعالت ذاته العلية، فالله سبحانه هو الخالق وليس هناك خلق سواه سبحانه، وأن شعلة الحياة لا يمكن أن توقدها إلا شعلة الحياة وهي ليست من العدم بل من زوجين إثنين وحتى يبقى الإفراد لله وحده الخالق - جلّ وعلا -.

ولهذا يتوجه القرآن بسؤال الكافرين في كل زمان إلى يوم القيامة: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ (لقمان: ١١).

وهكذا عندما يذكر القرآن قصة الخلق بهذا الإعجاز المبهر متفقة مع ما لم يحرف من الكتب السابقة، ثم يؤكد العلم ذلك ليكون إثباتًا لإعجازه - الذي لا يحتاج إلى دليل - وعلى صدق المعصوم ﷺ وقد بين القرآن أنه سبحانه خلق آدم عليه السلام بعد أن خلق جميع الكائنات، كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٩-٣٠).

وهكذا شاءت حكمة الله سبحانه أن يجعل في الأرض خلقًا يخلف بعضهم بعضا على هيئة الأمم والأحقاب والأزمنة.

وعلى الرغم من التقدم العلمي المذهل إلا أنه كثيرًا ما يخطئ عندما تسيطر عليه المادية الجامحة، فيفترض افتراضات ساذجة الغرض منها نفي القدرة الإلهية ـ حاشا لله ـ فهو يفترض أن الحياة بدأت ذاتيًا بمحض الصدفة من مواد غير حية دون تخطيط مسبق، بواسطة تفاعل أشعة الشمس مع طين الأرض، فتكونت أول خلية حية على سطح الأرض، ومع أنهم يستدلون على نظريتهم الساذجة بأن جسم الإنسان يتشابه إلى حد كبير مع طين الأرض، إلا أنهم يقفون عاجزين أمام كيفية تشابه الشفرة الوراثية في جميع بني البشر والتي تؤكد أنها مستمدة من أب واحد وأم واحدة، كما أخبر سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ (النساء: ١).

وهكذا يتضح لكل عاقل خطأ نظرية (التطور العضوي) لسذاجتها وعدم مصداقيتها، ويؤكد أن خلق الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام من طين، وأما السر في تحويل الطين إلى هذه الأجهزة المعقدة في جسم الإنسان فإنه من طلاقة القدرة الإلهية والتي أخبر عنها القرآن: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ (السجدة: ٧).

وقد تحداهم القرآن بأنهم مهما بلغوا من العلم، فإنهم لن يستطيعوا أن يخلقوا أقل مخلوقاته كالذباب والبعوض والعنكبوت والتي ضرب بها الله المثل في محكم التنزيل، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (الحج: ٧٣).

وأما الحكمة من خلق البشر فقد بينها القرآن في أكثر من موضع، وذلك لأن فيهم المطيع والعاصي فيظهر العدل بينهم، وأما المطيع فيوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون والعباد والزهاد والعلماء والعاملون والأولياء والمقربون والمحبون الخاشعون له تبارك وتعالى، وهم المتبعون رسله صلوات الله وسلامه عليهم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠).

وتلك هي الحكمة الحقيقية في إهباط آدم ﷺ للترقي في منازل المعرفة، ولتكتمل له مراتب العبودية ثم لذريته من بعده، وهذه العبودية هي أعلى مراتب درجات الإخلاص لله سبحانه، والتي لن تتحقق إلا بالقرب إليه والتعرف عليه ـ جلّ وعلا ـ بنعمه التي لا تعد ولا تحصى.

يقول ابن عطاء في كتاب (التنوير): «كان هبوطًا في الصورة ورقيًا في المعنى»، أي أن ابن عطاء ـ رحمه الله ـ يعني أنها لم تكن عقابًا على خطيئة، ثم يأتي الأبناء للتكفير عنها.

وكما تاب الله سبحانه على آدم ﷺ وزوجه، يتوب على المؤمن ويترقى من درجة إلى أعلى بالاستغفار والتوبة، والذلة والمسكنة، والخوف والرجاء، كما أخبر سبحانه: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ (طه: ١٢٢).

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ (الروم: ٢٠-٢٢).

* * *

إدريس عليه السلام
ثالث رسل العقيدة

(درس) بمعنى كتب وقيل سمي (إدريس) عليه السلام لكثرة دراسته لكتاب الله تعالى.

ومن أسمائه على المشهور: خنوخ وهرمس الهرامسة أي (الأمد الجرئ)، وأيضًا يقول علماء الآثار أن اسمه (آزريس) للتطابق التام بين سيرة كل منهما، مما يؤكد أنهما شخص واحد.

وقد ذكره القرآن في السورة التي اشتملت على كوكبة من الأنبياء: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ (مريم: ٥٦-٥٧).

(شيث) لم يذكر الاسم صراحة في القرآن وقد أعطى النبوة بعد آدم عليه السلام، ومعناه: معين وهو من أبناء آدم عليه السلام.

وقد ثبت في الصحيحين في حديث الإسراء أن النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم مر بإدريس عليه السلام وهو في السماء الرابعة.

وقد جاء في الحديث الذي رواه أبو ذر رضي الله عنه أن إدريس عليه السلام قال: مرحبًا بالنبي الصالح، والأخ الصالح، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام فأخبره أنه إدريس عليه السلام.

وقد جاء في تفسير الجلالين: أنه جد أبي نوح وأنه حي في السماء الرابعة أو في الجنة بعد أن أذيق الموت ـ والله أعلم ـ.

وإدريس عليه السلام وكما يؤكد علماء الآثار أنه ولد في منف وقبل عصر الأسرات في مصر القديمة، وكان صديقًا نبيًا كما أخبر القرآن، ويقال أنه أول من لبس

المخيط، وأول من علم الناس الزراعة، وأول من نظر في علم النجوم والحساب، وأول من عرف مواسم الفيضان، وقد أخبر الرسول الخاتم ﷺ بهذه الأمور، فقد جاء في الحديث عندما سُأل من خط بالرمل، قال ﷺ: «**إنه كان نبي يخط به فمن وافق خطه فذاك**» (جزء من حديث أخرجه مسلم).

بل وإن علماء الآثار يرون أن ما جاء في عقائد المصريين القدماء عن الممات والبعث والثواب والعقاب والميزان، ولمماتهم عن الله الواحد، ما هي إلا من كلمات النبي إدريس عليه السلام، وخاصة وأن المراجع الفرعونية تؤكد أنه لم يعرف عبادة الشمس، وأنه كان لا يغرز إبرة إلا وقال: سبحان الله.

ويقال أن الله سبحانه أنزل عليه ثلاثين صحيفة، فكان لا يفتر عن قراءتها ليلاً ونهارًا، وأنه كان عنده شدة بأس وصلابة في أمره ونهيه لتعاليم الدين الذي أُنزل عليه، وأنه كان لا يأكل إلا من كسب يده.

وقد استشكل على علماء التفسير في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ (مريم:٥٧)، وذلك لأن غيره من الأنبياء في درجات أعلى منه، فإذا قيل لأنه كان حيًا في السماء الرابعة. فإن هذه الروايات لم تثبت من طريق مرفوعة قوية على العكس ما ذكر عن عيسى عليه السلام والذي رفع وهو حي على الصحيح.

وأما ما جاء أنه سأل صديقًا له من الملائكة فحمله بين جناحيه ثم صعد به، فلما كان في السماء الرابعة تلقاه ملك الموت، فقال له: أريد أن تعلمني كم بقى من عمر إدريس؟ قال: وأين إدريس؟ قال: هو معي، فقال: إن هذا لشيء عجيب، أمرت بأن أقبض روحه في السماء الرابعة، فقلت: كيف ذلك وهو في الأرض، فقبض روحه، ومن الواضح أن هذه الرواية من الإسرائيليات.

وقد عثر في أطواء بعض الكتب المقدسة[1] على فقرة من صحف إدريس ﷺ، والتي لم يبق منها أي أثر سوى هذه الفقرة والتي تقول: «وقد تنبأ أخنوخ على هؤلاء الآثمة فقال: هوذا الرب يأتي في ربوات قديسية لينفذ القضاء عليهم ويبكت جميع المنافقين على أعمال نفاقهم».

ويتعجب علماء الآثار عند تصفحهم لما تركه قدماء المصريين من برديات تتحدث عن فكرة الخلود والحياة الأخرى، ويؤكدون أن استحواذ هذه العقيدة عليهم، ما هي إلا من تأثير كلمات إدريس ﷺ عليهم، والتي كانت أول خطوة على الطريق الطويل الذي ستقطعه الرسالات لتأكيد وحدانية الله سبحانه على مر العصور.

وإننا لو رجعنا إلى الرسالة التي تركها قدماء المصريين في معابدهم، والتي تسمى «ثالوث العقيدة»، والتي تشتمل على التعريف بالإله الواحد خالق الكون ولم يكن بجواره أحد، والتعريف بالتشريعات والتي يمكن للجسد بها السيطرة على الجسد الفاني، أي السيطرة للروح على الجسد، ثم التعريف برحلة الجسد الباقي أي الروح إلى العالم الآخر في سفينة الشمس إلى قاعة التحضير لتواجه قضاة التطهير ثم يصل إلى محكمة الآخرة لتوجه إليه الأسئلة والتي تتوافق تمامًا

---

(١) هذا النسب لهذه الكتب المقدسة عند الفراعنة أنه من بقايا الكتب المقدسة وأنه من صحف إدريس ﷺ يحتاج إلى سند ودليل وقد قال الأستاذ الدكتور/ محمد بكر إسماعيل في «قصص القرآن» (ص٤١) ـ دار المنار ـ: «وقد حكى بعض القصاص من أهل الكتاب وغيرهم ممن لا يقبل قولهم ولا يصح سندهم ـ في شأنه ـ أساطير هي إلى الخيال أقرب منها إلى الحقيقة ذكر بعضها ابن كثير في البداية والنهاية وحكم عليها بالكذب والوضع».

ـ وقال العلامة الشعراوي ـ رحمه الله ـ: «وبغض النظر عن صدق أو عدم صدق هذه الروايات فإن المعيار الأول في ذكر الأنبياء هو ما قاله الحق سبحانه في كتابه الكريم» «قصص الأنبياء» للشيخ الشعراوي ـ رحمه الله ـ (ص٣٧) ـ الدار العالمية للكتب والنشر.

مع مـا نادت به كل الأديان التي جاءت بعـد ذلك، وكلهـا تحث على الفضـيلة ومكارم الأخـلاق، وعدد هذه الأسـئلة ٤٢ سؤالاً صـيـغت بأجمل الأسـاليب وأرقاها، ومنها:

١ - عشت أجلـك الذي حدده لك الإله كامـلاً، فهل راعـيت حق بدنك عليك كما رعاك الإله في شبابك؟

٢ - هل حفظت جـسدك طاهرًا كرداء نظيف لم تلوثـه القاذورات؟ وهل تغلبت على شهوات جسدك؟

٣ - هل امتدت يدك إلى سرقة ما ليس لك؟ وهل قتلت نفسًا بغير حق؟

٤ - هل نظرت إلى من هو أغنى منك أو أشهر منك بعين الحسد أو الحقد؟ وهل سبق أن مزقت الغيرة قلبك بمخالبها؟

٥ - هل أهملت زرعك وأرضك ومحراثك وقـت الزرع أو البذر؟ وهل تعاملت بالعدل؟

٦ - هل اعترفت بالجـميل لكل من صادقك في رحلة الحياة سـواء كان إنسانًا أو حيوانًا أو شجرة؟

٧ - هل تصدقت بخبزك على المحتاجين وبثمار حقلك على الجائعين؟

٨ - هل عف لسانك عن قول البهتـان وشهادة الزور؟ وهل تعاملت في الأسواق بالأمانة؟ ولما لم تقسط في الميزان؟

وهكذا في بقيـة الأسئلة والتي تحث على الصدق والأمانة والعـدل والرحمة والحلم والتواضع والعفو وغيرها من محاسن الأخلاق.

وقد ذكر الـنبي الخاتم ﷺ سؤال الملكين في القبـر وجعلها من مـقومات الإيمان، ومع إنها عن ثلاث إلا أنها اشتملت على جوهر الدين كله.

وقد بين القرآن أن المؤمن يثبته الله سبحانه بالقول الثابت عندما يسأله الملكان عن: ربه ودينه ونبيه، فيجيب بالصواب: الله سبحانه وتعالى ربي، والإسلام ديني، ومحمد ﷺ رسولي.

تلك هي قصة إدريس عليه السلام والذي ذكره القرآن مع من أنعم الله سبحانه عليهم، وأخبر عنهم أن من جملتهم من هو ساجد وباك خشية من الله سبحانه وتعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ (مريم: ٥٨).

ولهذا أجمع أهل العلم على شرعية السجود اقتداءً بهم واتباعًا لمنوالهم، ومن بلاغة القرآن أنه جمع بين الأنبياء جميعًا في آية واحدة وإن كان فرق بين أنسابهم، وذكر خاتمهم وإمامهم وأفضلهم محمد ﷺ في قوله: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾، عليهم جميعًا صلوات ربي وسلامه.

ويرى العلماء أن العبرة من قصته عليه السلام أن الموت لا يفر منه أحد، وعليه فإنه يجب على المرء أن يكون على طاعة دائمًا، لأن الموت يأتي في وقت لا يعلمه، ومكان يجهله، يقول تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٤).



نوح عليه السلام
العبد الشاكر الحامد

(نـوح) من البكاء والتناوح، و(نوح) ينصرف مع العـجمة لأنه اسم على ثلاثة أحرف أوسطه سـاكن، ولأن خففـته عادلت أحـد الثقلين، وقيل: إنه كـان دائمًا ينوح ويبكي، ولكثرة نوحه سمي نوحًا.

(نـوح) من الحـمد لأنه كـان يحمـد الله على كل شيء، وقيل مـعناه: نواح وراحة وهو من الآباء، وأيضًا معناه: الراحة والتعزية.

ويقال أن اسمه (عبد الغفار) ولكن القـرآن سماه نوحًا لكثرة نوحه على نفسه في طاعة ربه، (الجودي): ج و د - أي الشيء الجيد، وهو جبل بأرض الجزيرة.

وكل هذه المعاني جـاءت في أكثر مـن موضع في القرآن، بل وجـاءت سورة بأكملـها تحمل اسـمه، وقد جـاء في تفسـير قولـه تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (الإسراء: ٣)، أنه كان يحمد الله سبحانه على طعامه وشرابه ولبسه وشأنه كله.

وهو أقدم نبي رسول ذكره الوحي ووصف جحـود قومه وتكذيبهم له، وما كابده منهم من عناء حتى أغرقهم الله سبـحانه بالطوفان، ولم يذكر عن نبي قبله ما ذكره عنه، فالقرآن عندما يذكر آدم عليه السلام لا يتحدث إلا عن الخلق والهبوط من الجنة إلى الأرض وما حدث بين ابنيه، ولم يذكـر شيئًا عن «شيث» عليه السلام، وأيضًا لم يذكر تفـصيلاً لقـصة إدريس عليه السلام، ولكنه عندما بدأ يقص قـصة نوح عليه السلام، يذكر الكثير عن تفاصيلها.

وتقول الأسفـار القديمة: إنَّ نوحًا عليه السلام كان عمره ستـمائة عام عندما حدث الطوفان، أي أنه ظل يدعو قومه أقل من هذه الأعوام بكثير.

يقول أحد أدعياء الثقافة من العلمانيين: أن هذا الخبر الذي جاءت به الأسفار القديمة لا نصدقه ولا نكذبه والذي يفصل فيه هو العلم إما إثباتًا أو نفيًا.

وكأنه أراد أن يجعل العلم بمادتيه واحتمال الصحة والخطأ فيه، هو الفيصل بين المحفوظ والمحرف . . !!

والرأي أن الأخبار الإسرائيلية تنقسم إلى ثلاث أقسام: القليل منها صحيح لموافقته الكتاب والسنة فنصدقه، والكثير منها معلوم البطلان لمخالفته ما جاء في الكتاب الحق، وأما الثالث فهو الذي ينطبق عليه التصديق أو التكذيب إن كان أمرًا لم يذكره القرآن الكريم والحديث الصحيح.

وعليه فمادام الكتاب الحق أخبر أنه ﷺ أمضى بين قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا ـ مخالفًا ما تقوله الأسفار القديمة ـ فهذا هو الذي نصدقه، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (العنكبوت: ١٤).

ومع إن دعوته ﷺ كانت ككل دعوة الأنبياء: إيمان وتقوى وطاعة، إلا إنهم تمادوا في عصيانهم على الرغم من كل الدلائل التي ساقها لهم، حتى لم يعد يرجى منهم توبة لكبريائهم وطغيانهم، فكانوا يفرون منه، ويسدون آذانهم حتى لا يسمعوه، وتنكروا حتى لا يعرفهم، وكان كل ما انقرض جيل أوصى من بعده بعدم الإيمان برسالته ومحاربته ومخالفته، ولشدة ما فيه من الحزن والألم توجه إلى ربه سبحانه بالدعاء ينوح باكيًا، كما أخبر القرآن: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ (القمر: ١٠).

وكان الطوفان والذي ذكره القرآن في أكثر من موضع، والذي فصلته سورة «هود» أكثر من أي موضع آخر: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ (هود: ٤٠).

وقد جاء ذكر الطوفان في العديد من الأساطير والروايات لعدد من الشعوب القديمة وفي أجزاء متفرقة من العالم القديم، وكلها واهية وتتعارض مع الصحيح، وخاصة وأن فيها الكثير من المنافاة لأدب الإسلام وأخلاقه[١].

وعلى الرغم من تعدد قصة الطوفان إلا أنها لا تعد شيئًا يذكر أمام روعة وجمال القصة في القرآن والذي انفرد بقصة ابن نوح الذي خالف أباه، وما دار بينهما من حوار، ثم كان من المغرقين، وقد تحاش القرآن ذكر أوصاف السفينة، ولكنه ركز على إنصاف نبيه ﷺ ومدحه وذم من خالفه، لأنه من أكبر الأنبياء أولي العزم بعد خاتم النبيين ﷺ: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (هود: ٤٤).

ويقال: إنَّ جميع جبال الأرض تشامخت يوم الغرق، وأما جبل الجودي تواضع لله فلم يغرق وأرسيت عليه السفينة.

وأما الآية والتي تناولها العديد من المفسرين، وحاول حديثًا ممن يتمسحون بما يسمونه التفسير العصري للقرآن أن يحملوا الآية أكثر من معناها، يقول تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَاراً﴾ (نوح: ٢٥).

جاء في تفسير الجلالين: عوقبوا بالنار عقب الإغراق تحت الماء.

وقال النسفي في تفسيره: هو عذاب القبر.

---

(١) من أقدم هذه القصص ما جاء في أقدم حضارة ظهرت على وجه الأرض في بلاد العراق وكانت تسمى «أوروك» وموقعها بين النهرين، وقصة الطوفان جاءت تحديدًا في الأدب السومري في الألف الثالث قبل الميلاد.

- وأيضًا جاء في سطور قليلة ذكر طوفان ابتلع قارة بأكملها وربما تكون «أطلس» في حضارة قديمة تسمى الحضارة النطوقية غربي القدس والتي نشأت بها فلسطين أقدم القرى الدائمة في العالم القديم أي قبل أن يظهر اليهود كعشيرة أو شعب بآلاف السنين.

وأما الآلوسي فيرى أنها نارالخزي والخذلان.

وأختار الضحاك أنهم كانوا يغرقون من جانب ويحرقون من جانب آخر.

ويرى أكثر المفسرين أنها نار جهنم يوم القيامة لأن كل ما هو آت فإنه قريب.

هذه قصة النبي العبد الحامد الشاكر والذي ظلمته الإسرائيليات عندما صورته ـ كذبًا وبهتانًا ـ بأنه غرس كرمًا وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه.

وكما تشهد أمة النبي الخاتم ﷺ على شهادة الصادق الأمين بأنه ﷺ بلغ الحق على أكمل وجه، نشهد ـ الآن ـ بأن ما يهذي به أهل الكتاب هو الكذب والضلال والبهتان وأنهم من دعا عليهم بزيادة هلاكهم لظلمهم له، وندعو الله سبحانه أن نكون من المؤمنين الذين دعا لهم بالمغفرة: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ (نوح: ٢٨).

لقد كرم الله سبحانه عبده ونبيه ﷺ حين أمره بالهبوط مصحوبًا بسلامه وبركاته: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (هود: ٤٨).

ويرى العلماء العبرة من قصته ﷺ الصبر والعزيمة في الدعوة لدين الله سبحانه، فقد استمر يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا ليلاً ونهارًا ولم ييأس، وحتى أنه بعد الطوفان ظل يعلم المؤمنين أحكام الدين حتى لقى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠٥).



هـود 
الحكمة ومعاينة الحق

(هـ و د) التهدد هو العمل الصالح.

(هاد) تاب ورجع إلى الحق، والتهود هو التوبة والعمل الصالح.

و(هود) اسم نبي وهو أول من تكلم العربية، ويقال: أن قبره في اليمن كما روى علي بن أبي طالب ﷺ، وأنه حج البيت العتيق كغيره من الأنبياء، وهو أحد أنبياء أربعة من العرب ومنهم صالح وشعيب ومحمد ـ عليهم صلوات الله وسلامه، كما ذكر ابن حبان في حديثه عن الأنبياء والمرسلين.

(ارم) قوله تعالى: ﴿بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ (الفجر: ٦-٧)، فمن لم يضف جعل (إرم) اسمه ولم يصرفه لأنه جعل عادًا اسم أبيهم وأرم اسم القبيلة وجعله بدلاً منه، ومن قرأ بالإضافة ولم يصرفه جعله اسم أمهم أو اسم بلدة.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾ (الفجر: ٦-٨).

تلك هي عاد الأولى التي طغت فدمرها الله ـ سبحانه ـ ولقد قطعت شوطًا هائلاً في الحضارة، ولابد أنها كانت أعظم من الحضارة الفرعونية التي حيرت العلماء حتى يومنا هذا، لقد وصفهم القرآن بأنها ليس لها مثيل في البلاد، ومع كل هذا الرقى عبدوا الأصنام . . !! كانت بلادهم من أخصب بلاد الله ـ سبحانه ـ ذات مياه وأشجار وزروع لاسيما في حضرموت من بلاد اليمن، وكانت «عاد أرم» نحو ثلاث عشرة قبيلة فطغوا وتكبروا، فأرسل الله إليهم هودًا عليه السلام، وقد وصف القرآن مبلغ طغيانهم وفجورهم وتكذيبهم، واستخفافهم بالأوامر الإلهية.

وكان هود عليه السلام يقدم لهم النصيحة بالتمسك بما فيه خير لهم وهو «العمل الصالح» كما جاء في القرآن: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ (الأعراف: ٦٨).

وقد بين القرآن أنه عندما تقدم بالنصح لا يريد منهم أجرًا: ﴿يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (هود: ٥١).

ومع هذا كان ردهم: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (هود: ٥٣).

وهكذا أصروا على الكفر إلا نفرًا قليلاً منهم، وقد انضم إلى كفرهم مآثم ومناكر غاية في البشاعة: ارتفاع قصورهم تظاهرًا بالغنى والثروة، والعبث والإفساد في الأرض، والاستهزاء بالغرباء إذا قصدوا نبيهم للاستماع إليه، فكان لابد أن ينزل بهم أشد العقاب، كما أخبر القرآن: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾ (الحاقة: ٦-٨).

ومعنى «حسومًا»[1]: أي استأصلتهم وأبادتهم، وكانت شؤمًا عليهم، فكانت تدمر بلا رحمة فلا تبقى شجرًا ولا ثمرًا.

ويقال: إن هذه الأيام هي «أيام العجوز» المعروفة بشدة البرد القارس في آخر إبريل وأول مارس، وقد قيل: أن عجوزًا من قومهم توارت من الخوف فانتزعتها في اليوم الثامن.

---

(١) معنى حسومًا: أي متتابعات الهبوب بلا فاصل كتتابع الكي القاطع للداء، «أيسر التفاسير» للعلامة أبو بكر الجزائري (ص ١٤٠٠).

وكثيرًا ما يقرن القرآن بين ذكر عاد وثمود، وخبر الأمتين لا يعرفهما أهل الكتاب، ولم تذكر التوراة شيئًا عن أخبارهما، وإن كان القرآن أخبر أن موسى عليه السلام قال لقومه: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (إبراهيم: ٩).

«عاد إرم» كانت أخصب البلاد وأكثرها جنانًا وأعظمها حضارة، أقاموا مآخذ الماء وبنوا القصور العالية الضخمة، وبنوا العديد من السدود بين مضايق الجبال لتغذية الترع التي تروي المزارع الهائلة.

أهل الإلحاد قالوا: إنها مدينة خيالية ليس لها أساس من الحقيقة، وإنما هي من الأساطير، وأهل الكفر والضلال قالوا: إنها مدينة من ذهب وفضة وهي تنتقل كل حقبة من الزمن في البلاد، لأنها تدور في الأرض.

والرأي الأول ـ لا دليل عليه ولا برهان يعول عليهما، وما قولهم هذا إلا حقدًا وطعنًا في القرآن الذي أخبر عنهما.

وأما الرأي الثاني ـ فهو ضلال وأقوال باطلة لا تستقيم مع العقل، وما هي إلا ترديدًا ساذجًا لمن على شاكلتهم من الدهرية والزنادقة والدورية، وهم جميعًا يجمعهم الخيال الفاسد.

والآن يبقى السؤال الهام: ماذا يقول العلم عن (مدينة عاد إرم) والتي ذكرها القرآن بهذه الدقة المتناهية؟ لقد وجد أنها مذكورة في تاريخ بطليموس، بل وإن اسم (عاد) مقرون باسم (إرم) في كتب اليونان، وفي السنوات الأخيرة عثر المنقبون في الحجاز الشمالي على آثار منقوش عليها باليونانية ما يشير إلى قبيلة باسم (العادراميون) ولا غرو أن يكون هؤلاء هم الذين سماهم العرب (عاد إرم).

وأيضًا وجد في كتب (السكندري) وهو عالم في الفلك والجغرافيا وقد بزغ نجمه في مكتبة الإسكندرية - ١٢٧م إلى ١٤٥م - ما يشير إلى حضارة قديمة في شبه الجزيرة العربية وقد وصفها بأنها لا شبيه لها في كل ما كتب عن البلاد التي زارها أو قرأ عنها.

ثم جاء دور العلم الحديث يؤكد أن ما أشار إليه السكندري ليس قصصًا من وحي الخيال وإنما هي حقيقة ثابتة، فقد صورت الأقمار الصناعية هذه الأماكن والمسافات بعيدة في باطن الأرض، فوجدت بقايا طرقات وقصور وأنهار، وبهذا أثبت العلم أن القرآن ما هو إلا أنوار يتلألأ فيها وحي السماء ولا يراها إلا المؤمن، يقول تعالى: ﴿**وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ**﴾ (الروم: ٥٣).

وقد اسهب المفسرون القدامى في الدروس المستفادة من قصته عليه السلام ومنها: القوة الاقتصادية وحدها لا تحقق التمكين في الأرض، بل إن سوء استخدامها يؤدي للإنهيار والضياع، والطغيان نهايته الفناء والدمار، وإذا كان - سبحانه - يمهل الظالم ويستدرجه من حيث لا يعلم وحتى يظن أنه صاحب الأمر، إذا بالعذاب ينزل عليه وهو في أوج جبروته، ليكون عبرة لمن يعتبر، ورحمة للمظلومين.

وأما أهم هذه الدروس فهو التحذير من سوء الموارد عن طريق العبث من فئة قليلة بإقامة المباني الفاخرة دون الحاجة إليها ولمجرد التفاخر والخيلاء ..!!

فما بالك بمن بلغ بهم العبث إلى منتهى السفه، فاشترى سرابًا على سطح القمر للسكن فيه، وأعطى الملايين لمن لا يملك ليطلق اسمه على أحد النجوم،

وإخوانهم يتعـرضون للموت جوعـًا وعطشًا، وعلى يد من؟! على يد من باع لهم الوهم!![1].

يقول سبـحانه وتعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ (التوبة: ٦٥).

---

(١) وقد سبق القرآن كافة النظم الوضعية حين يقرر سنة كونيـة وحقيقة شرعية في عقاب من يريدون إبقاء حالة الترف لهم وعدم أراء تبعات ما هم فيه من خير ونعيم لمن يشاركونهم العشيرة في الأرض، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (الإسراء: ١٦).

صالح عليه السلام
الناصح الأمين

(صالح) ـ ص ل ح ـ الصلاح ضد الفساد.

و(صالح) عليه السلام كان أجمل أهل زمانه وأفصحهم لسانًا، وكان يعيش على طريقة المسيح عليه السلام، متقشفًا لا يتخذ مسكنًا ولا بيتًا، يسيرحافي القدمين إلا من الخفين، وكان كثير البكاء وخاصة على الناقة، فأتى جبريل عليه السلام وبشره بأنها ستبعث يوم القيامة، فطابت نفسه، واستمر مقيمًا بمكة حتى مات ودفن بها.

(ثمود) ذكرت في جملة البلاد التي ذكرها مؤرخو اليونان ويسمونها (ثمودني) وقد وجدت على أطلال مدائنها كتابات ونقوش تدل على هلاكهم.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«لا تدخلوا مساكن الذي ظلموا أنفسهم ـ إلا أن تكونوا باكين ـ أن يصيبكم مثل ما أصابهم»** (رواه البخاري).

وقد ذكر ابن إسحق في «المبتدأ» وغيره قصته عليه السلام مع قومه، والتي تتلخص في أنه دعاهم إلى عبادة الله سبحانه، فآمنت طائفة منهم وكفر أكثرهم وهموا بقتله، وقتلوا الناقة التي جعلها الله سبحانه حجة عليهم، فكان الهلاك لهم، وقد توجه نبيهم عليه السلام بالحديث إليهم حزينًا متألمًا لحالهم: **﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾** (الأعراف: ٧٩)، **﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾** (الفجر: ٩).

وهي مدائن صالح المشهورة ذات البيوت المنحوتة في الجبال نحتًا في غاية الإحكام وحسن الصنعة، وكان أهل ثمود أصحاب حضارة وعمارة وثراء، ولم

يكونوا كالأعـراب الذين يرتحلون لطلب العـشب. وقد وجد علمـاء الآثار على أطلالهم نقـوشًا مكتوبة بالـلغة الآرميـة لغة سـادتهم النبطيين على الرغم من أن لغتهم الأصـلية هي الحميرية لغـة اليمن القديم، ووجدوا أيضًـا فروع من القلم المسند في عـدة أماكن من بلاد الحـجاز، وهذا مـا يؤكد صدق الـقرآن الذي لا يحتـاج لتصديق أحـد من البشر، ويؤكـد ـ أيضًا ـ هذا الاكتـشاف تكذيب أهل الكتاب في ادعائهم بأن قصة ثمود من أساطير الأولين وليس لها وجود.

ومن أهم مـا تعلمه المسلمـون من قصـة صالح ﷺ ما بينه الـنبي الخاتم ﷺ عندما طلب كفار مكة ـ سخرية واستهزاء ـ بأن يجعل لهم الصفا ذهبًا، وأن ينحى عنهم الجـبال فـيزرعـوا مكانهـا، وقد منع ـ سـبحـانه ـ عنهم تلك الآيات، لأنهم لو كذبوا بعدها لاستحقوا العذاب[1]، ورسول الله ﷺ اختار باب التوبة والرحمة.

يقول سبـحانه: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا﴾ (الإسراء: ٥٩).

وقد جاء في الحديث أنه ﷺ قال: «**لا تسألوا الآيات وقد سألها قوم صالح، فكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها فأخذتهم الصيحة**» (جزء من حديث أخرجه أحمد والحاكم وابن حبان).

---

(١) أو لعلم الله في سابق علمه أن هؤلاء القوم لم يؤمنوا فـلا يجدي منهم نصح ولا تذكير وإلا كان هذا عبـثًا لا يليق بالخـالق سبحـانه وتعالى، راجع تفـسير الـعلامة الـسـعدي في تفـسير سـورة الإسراء (ص٤١٣).
ـ لأنهم لو كذبوا بعدها لاستـحقوا العذاب، وما كان الله ليهلك أمة النبي ﷺ بسنة عـامة كما دعا بذلك النبي في الحديث.

وقد أسهب المفسرون في وصف الناقة فهي: عظيمة عشراء على الوجه الذي طلبوه، وهي ذات منظر عظيم، وقد أضافها نبيهم بقوله «ناقة الله» إضافة تشريف وتعظيم، ومع أن الذي قتلها أحدهم، فإن العمل نسب إليهم جميعًا، لأنه كان برضاهم واتفاق جميعهم على اختيار طريق الشر واستبعاد الحق، وطمعًا في أن يكون الماء كله لهم، فكان العذاب كما أخبر القرآن: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ (الفجر: ١٣).

ذكر المفسرون الكثير في تفسير الآية والتي جاءت لتبين ما أصاب أمم ثلاثة طغوا وأفسدوا، وتجاوزوا الحد في الإساءة إلى قومهم وإلى غيرهم، فضلاً عن تكذيبهم لرسلهم وكفرهم بربهم.

يقول الفراء: هي كلمة تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب، ثم تأتي الآية التي بعدها: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ (الفجر: ١٤)، لتعليل ما قبلها من التعذيب، وفيها استعارة تمثيلية لبيان أنه سبحانه يحصي أعمال العصاة لينتقم منهم، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (الأعراف: ١٨٢-١٨٣).

ولكن لماذا استثنى الله سبحانه مصر الفرعونية من الدمار الذي لحق بعاد وثمود؟

هل لأن النبي الكريم يوسف عليه السلام قال لأبويه وأخوته: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ (يوسف: ٩٩)، فكان حقًا عليه ـ سبحانه ـ ألا يرد كلمة نبيه إلى يوم القيامة؟ أم أنه ـ سبحانه كان يعلم وهو علام الغيوب ـ جلَّ وعلا ـ أنها ستكون في رباط إلى يوم القيامة كما أخبر آخر الأنبياء وخاتمهم صلى الله عليه وسلم؟

سؤال لـم يتبـادر إلى ذهن أحد من قـبل، ويحتـاج إلى إجابة من علمـائنا الأفاضل، ومن إعجاز القرآن أن قصة صالح عليه السلام والتي يمكن كتابتها في مجلد ضخم، لخصتها سورة من قصار السور، وجاءت بعد أطول قسم في القرآن.

يقول تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ (الشمس: ١١-١٥).

﴿وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾، جاء في تفسير الآية الأخيرة من سورة «الشمس» المكية وترتيبهـا حسب المصحف (٩١) وحسب نزول الوحي (٢٦) الكثـير من الأقوال قديمًا وحديثًا.

يقول الإمام محمد عـبده: الله في عزته وجبروته أهلك هؤلاء المكذبين ولا يخاف عـاقبة إهلاكـهم لأنه لا هو ظالم فيـخيفـه الحق، ولا هو ضعـيف فيناله المكروه ـ تعالى الله عن ذلك علوًا كـبيرًا ـ من تفسيـر جزء عم، وكأن هذا الذي سمعته في خبر ثمود ما يدلك على جواب القسم، كأنه قال: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ (الشمس: ١)، إلى آخر القسم وعدده (٩): الشمس والضـوء والقمر والنهار والليل والسماء والأرض والنفوس والنفس لينزلن بكفار مكة مثل ما نزل بثمود.

ولولا أنه ـ سبحـانه ـ رفع العذاب عن هذه الأمة، لرأيت عاقبـة من اختار الكفر على الهدى، يقول سـبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (فصلت: ١٧).

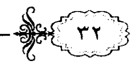
هذه قصة صالح عليه السلام النبي العابد التـقي الزاهد خرج على أصحابه مـتكئًا على عصاه، حافي القدمين، عليه جبـة من الصوف، الدموع تملأ عينيه، مصفر

الوجه من الجوع، يابس الشفتين من العطش، حزينًا على قومه وقد أخذتهم الزلزلة الشديدة من الأرض، والصيحة من السماء، لأنهم لم يصدقوا ما قاله لهم نبيهم الناصح الأمين ﷺ.

وتلك عاقبة الاستهزاء والسخرية بمن ينصح بالرجوع إلى الدين والتمسك بالثوابت الإيمانية، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (الأعراف: ١٨١-١٨٤).

﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾، استثنى الله سبحانه أمة محمد ﷺ من بين الأمم لأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر إلى يوم القيامة.



إبراهيم 

وخصال الكمال ومواهب الفضل كلها

(إبراهيم) ـ اسم أعجمي، وفيه لغات (إبراهام، وإبراهيم، وإبراهم).
ومعناه: أبو جمهور كبير وهو من الآباء الأولين ـ من دائرة المعارف ـ.

وجاء في بعض المعاجم نقلاً عن عـدد من المراجع: أنه كان من أغنى الأنبياء وأكثرهم مالاً، وكان لا يأكل إلا مع الأضياف، ولهذا كان يكنى «أبا الأضياف».

ويقـال أن «إبراهيم» اسم عـربي يتـصل بلفظ «برهم» فـفي لسـان العـرب «البرهـم» من قولهم برهم إذا أطال النظر، والبـرهمة هي «إدامـة النظر وسكون الطرف»، وقد كان عليه السلام يديم النظر في ملكوت السماء والأرض، كقوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ (الصافات: ٨٨).

وتقول بعض المعاجم أيضًـا: أن معنى «إبراهيم» وهي من حروف (ب ر هـ م) أي الحجة والبرهان، وهذا المعنى يتضح في مناظرته مع قومه ثم مع النمروذ:

(إسماعيل) ومعناه: زهرة الحـياة، وقيل: أنه «من سمع الله لك فـيه» وهي بالعبرية.

(إسحق) ومعناه: البشري والذي يضحك كـما جاء في دائرة المعارف، وقيل أنه اسم عربي يتصل بلفظ «سحق» وهو البعد، وقد ولد لإبراهيم عليه السلام بعد زمن سحيق أي بعيد من بشارة الله سبحانه لنبيه إبراهيم الخليل عليه السلام.

(يعقوب) أي المشتق من العقب بعده، لأنه خرج وهو آخذ بعقب أخيه فسمي (يعقوب)، وهو «إسـرائيل» الذي ينتسب إليه بنو إسرائيـل، وقيل أيضًا أنه اسم عربي متصل بلفظ العقب والعاقبة وهي «أبناء الرجل من بعده».

وأما الأسماء التي لم تذكر صراحة في القرآن فهي:

(سارة) والمعنى: رئيسة ومدبرة، وهي زوجة إبراهيم وأم إسحق، واسمها الأول «ساراي» أي رئيستي.

(هاجر) والمعنى: هجرة وغريبة، وهي أم إسماعيل ويقال إنها من «هـ ج ر» والمهاجرة من أرض إلى أرض.

(النمروذ) ومعناه: قوي، وسوف نتمرد، وهو من أحفاد «حام»، وهو أحد ملوك الدنيا الأربعة: مؤمنان وهما (ذو القرنين وسليمان)، وكافران وهما (النمرود وبختنصر)، ويقول الزركشي في (البرهان): «لم يذكر القرآن اسمه لشهرته في الغباء والبلادة».

وكل هذه المعاني جاءت في القرآن الكريم، فقد ذكر عن إبراهيم ﷺ أنه سبحانه آتاه رشده صغيرًا، وأرسله رسولاً، واتخذه خليلاً، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل: ١٢٠).

وأما قصته مع النمروذ وكيف أقام عليه الحجة والبرهان، وكانت أسئلته فيها الغباء والبلادة بعكس الأسئلة التي وجهها فرعون إلى موسى ﷺ فكانت تتسم بالذكاء ـ وهو ما يعرف بالذكاء المدمر أي في الشر ـ، وقد بدأت الآية من سورة البقرة بالتعجب من أمر النمروذ بن كنعان وحماقته المتناهية، بدأت الآية بالتعجب الذي جاء على صورة الاستفهام لإنكار النفي وتقر المنفي، وقيل: أنها كانت عند تكسير الأصنام، وكان النمروذ قد سجنه، ثم أخرجه من السجن ليحرقه، وقيل: أنه كان قبل الإلقاء في النار، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥٨).

ومن شدة غباء النمروذ أنه أحضر رجلين فقتل أحدهما وأطلق الآخر، وكان في استطاعة إبراهيم عليه السلام أن يبطل هذا القول لأنه لا يدخل في المشيئة الإلهية - حاشا لله - فهو من أفعال الظلم وليست من صفات العدل، ولهذا انتقل إلى دليل آخر لا مجال فيه للمناقشة، وهو طلوع الشمس من المغرب، ولهذا لم يستطع أن يتكلم لأنه لا قدرة لأحد من الخلق عليه.

ثم يتحدث القرآن في أكثر من موضع بأنه سبحانه وهبه الأولاد الصالحين، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، فكل نبي بعث بعده فهو من ذريته، وكل كتاب نزل من السماء على نبي من الأنبياء من بعده، فعلى أحد من نسله وعقبه.

وأول من ولد له فهو إسماعيل عليه السلام من هاجر القبطية المصرية، وقد بشرتها الملائكة بأنها ستلد غلامًا وسيكون من نسله من تكون يده على الكل، ويد الكل به، ويملك جميع أخوته، وهذه البشارة تنطبق على ولده محمد صلى الله عليه وسلم ابن الذبيحين.

وإسماعيل عليه السلام أول من تكلم بالعربية الفصيحة، وكان قد أخذ كلام العرب من «جرهم» الذين نزلوا عند أمه هاجر بالحرم، وقد أنطقه الله سبحانه بها في غاية الفصاحة والبيان.

ومنذ أن وعى إسماعيل عليه السلام وقبل أن يدخل مرحلة الشباب، وهو صاحب همة وصدق فقد كُتب عليه أن يشب في مكان قفر بوادي غير ذي زرع بمكة، وقد أثبتت الحفريات والنقوش أنه كان يمشي في الأسواق، وكان صادق الوعد، وكان رسولاً نبيًا، كما أخبر القرآن: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ (مريم: ٥٤-٥٥).

﴿صَادِقَ الْوَعْدِ﴾، الأنبياء ـ عليهم السلام ـ كلهم صادقون في وعودهم، ولكن القرآن خصه لأنه صدق الوعد في أغلى شيء وهي حياته، حينما لم يتردد لحظة واحدة في تنفيذ الأمر الإلهي، وقد عفا عنه ـ سبحانه ـ من الذبح بكبش أملح، وقيل هو الذي كان هابيل، فأدخره ـ سبحانه ـ ليعلم عباده أن الخير من الأجداد ينفع الأبناء.

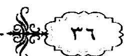
ثم أوحى الله سبحانه إلى إبراهيم عليه السلام يبشره بإسحق فخر ساجدًا لله سبحانه وتعالى، وقد زعم اليهود أن الذبيح هو إسحق عليه السلام وأن أباه قدمه قربانًا لله على صخرة بيت المقدس، ولهذا يقدسونها، والقرآن يبين كذبهم، فالملائكة بشرت بإسحق عليه السلام بعد وقوع هذه الحادثة لإسماعيل عليه السلام والذي كان قد بلغ السعي مع أبيه، وأنها لم تحدث كما يدعون في أرض فلسطين بل في أرض الحجاز.

يقول سبحانه: **﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾** (الصافات: ١٠٢).

تلك هي قصة النبي الكريم الذي تصلي عليه وتباركه خير أمة أخرجت للناس في كل صلاة، والذي ذكره القرآن في تسعة وستين موضعًا ومنها سورة باسمه، وأول من سمى الدين بالإسلام، وأول من هاجر إلى الله سبحانه، وأول من اختار الحنيفية عقيدة ومنهاجًا، النبي الكريم إبراهيم عليه السلام والذي وصفه آخر الأنبياء وخاتمهم صلى الله عليه وسلم بأنه «**خير البرية**» (جزء من حديث رواه مسلم).

وأيضًا أخبر عن (دعوة إبراهيم صلى الله عليه وسلم) بأنه لما ألقي في النار قال: «**اللهم إنك في السماء واحد وأنا في الأرض لا أحد غيري يعبدك**» (جزء من حديث رواه البخاري).

يقول تعالى: **﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾** (النساء: ١٢٥).



لـوط عليه السلام
صاحب البيت الطاهر

(لأط): لأطا فلانًا أي أمره بأمر فألح عليه.

و**(لط)**: لطًّا الرجل بالأمر أي لزمه.

و**(لاط)**: لوطًا الرجل الحوض أي طلاه وملسه بالطين، والشيء بالشيء لصق، والولد بفلان أي ألحقه به ونسبه إليه، وفلان لواطًا أي عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط عليه السلام من ارتكاب الفاحشة.

وجاء في بعض المصادر: - **(استلاطه) ألزقه بنفسه، و(لوط) اسم ينصرف مع العجمة والتعريف** - وأن معنى (لوط) أي النقاب والغطاء أي (السترة).

وكل هذه المعاني تتضح فيما ذكره القرآن فقد أمر قومه بأن يتركوا الفاحشة وألح عليهم مرارًا بذلك، حتى أنهم أرادوا طرده من بينهم.

وإذا كان أهل الكتاب ظلموا هودًا وصالحًا - عليهما السلام - تجاهلاً، وظلموا إسماعيل عليه السلام حقدًا وحسدًا، إلا أن ظلمهم للنبي الطاهر الشريف لوط عليه السلام أشد وأقسى، وقد أخطأوا في قصته خطأً عظيمًا.

شتان بين لوط عليه السلام في القرآن وبينه كما صورته الإسرائيليات، صورة بشعة تهبط بالبشرية إلى الحضيض، فما بالك مع نبي كريم؟!

وملخص القصة كما ذكرها القرآن في أكثر من موضع أن نبيهم عليه السلام دعاهم إلى التوحيد والإقلاع عن الفاحشة، فأصروا على الامتناع، وكانت مدائنهم

تسمى «سدوم» بالشام، وقد اقتلع جبريل عليه السلام قراهم ورفعها بين السماء والأرض، ثم قلبها وجعل أعلاها أسفلها.

ولوط عليه السلام خصه الله سبحانه مع الصفوة من خلقه بالصلاح والإمامة والقدوة، والنبوة والوحي، وأنه كان يأخذ قومه إلى الفضيلة بالأسلوب الرشيد والمنطق السديد، كما أخبر القرآن: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (الأنبياء: ٧٤-٧٥).

وأدب النبوة يتضح في الآية من سورة الأعراف حين يتوجه إليهم بأسلوب الاستفهام، ولكنه استفهام تقريع واستنكار: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ٨٠).

وتأمل قوله سبحانه وتعالى عندما يصف العذاب الذي نزل بقومه، ولم يكن فيهم غير بيت للمسلمين، وهذا البيت فيه نبي الله عليه السلام وابنتاه، وأما زوجته فقد نالها العذاب.

ولقد ذكرت الإسرائيليات أن ابنته الكبرى سقته خمرًا لتقضي معه ليلتها، وتفعل الصغرى ذلك أيضًا في الليلة الثانية ..!!

وهكذا لم تترك الإسرائيليات البيت الطاهر إلا وقد دنسته، وكأنها ملأت حدائق الثمار الطيبة بالأشواك والعشب، وذلك لتورطهم في الشطط الجامح.

يقول ابن كثير: «وقد خبط أهل الكتاب في هذه القصة تخبيطًا عظيمًا» (البداية والنهاية).

إنهـا صورة قـاتمة تحار في إدراكـهـا العقـول، وتؤكد أنـهم يحرفـون الكلم عن مواضعه، ومعذرة في استعارة أحد الأوصاف التي ذكرها خادمهم - إنها الإسقاط -[1].

وقد صنف الإمام الذهبي: «التلوط من أشد الكبائر إثمًا وأبعدها عن الفطرة السليمة» (من كتاب الكبائر).

وقد اجتمع لهـؤلاء القوم من الخصال الدنيئة ما أبـعدتهم عن نخوة الرجال والبعـد عن الحياء والخجل، وانقـباض النفس عن القبـيح حذرًا من اللوم، ومن هذه الخصال: شرب الخمر، والتشبه بالنساء ملبسًا وهيئة، وقطع الطريق، وخيانة الرفيق، والمنكر من الأقوال والأفعال، ولهذا كانوا كلما هموا بالمعصية والتي يهتز لها عرش الرحـمن من فوق سبع سموات، كانوا لا يهـتمون بشيء لأنهم ارتموا في أحضان الشيطان، وفقدوا نخوة الرجولة.

ومن قصة لوط ﷺ نجد الإجابة على السؤال الذي يحـير أهل الفضيلة في هذه الأيام: لماذا كل هذا الحـقد الأسـود من أهل الكفر والضـلالة والدنس على أهل الإيمان والنور والطهارة؟

لقد حقد قوم لوط ﷺ على المؤمنين ووصفوهم بأنهم «قوم يتطهرون» وكأن الطهر أصبح عـيبًا . . !! أو كما أخبر الـقرآن - بوجه عام - ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ (النساء: ٨٩).

وذلك لأن أهل الكفر والمنحرفين والضالين قد قتلوا في أنفسهم - وبأيديهم - فطرة الخير، فـماتت الضمائر وأصبحت الحـياة عبثًا لا فائدة منهـا - وهذا يفسر ارتفاع أعداد المنتحرين عندهم -.

---

(١) **الإسقاط**: عملية دفاعية وهو أن يلصق الفرد صفة من صفاته السيئة والغير مقبولة بالآخرين.

إنهم يريدون بكل الطرق وبشتى الوسائل إيقاع غيرهم في براثن الوحل حتى يكونوا وهم كما أخبر الكتاب الحق ﴿فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾، وذلك لأنهم وحتى إذا أرادوا أن يتجملوا ويتظاهروا بالنظافة والطهر لا تكفيهم أنهار العالم.

وهذا ما يفسر موجات الضياع والانحلال والتي تأتي ممن يدعون أنهم رعاة العدالة والديمقراطية والتقدم، ويريدون فرضها على غيرهم وحتى يكونوا مثلهم في عبادة الشيطان وإباحة الشذوذ، والبعد عن كل ما يمت للفضيلة والأخلاق والشهامة والرجولة.

إن دعوة لوط عليه السلام ما هي إلا بيان لقوم يعملون لآخرتهم، وآخرين يعملون لدنياهم ولا يريدون أن يكون أحد خيراً منهم، إن دعوة لوط عليه السلام بكل ما فيها من فضائل الصفات، وكرائم الشمائل، ما هي إلا تحذير لأهل الجنة ـ إلى يوم القيامة ـ أن يكونوا على حذر من تلك الموجات المتلاحقة الفاسدة، وأن يتسلحوا بقيم الإيمان التي يرشد إليها الدين الحنيف وكما أرشدت كل الأديان، وأن يتمسكوا بالقيم النبيلة التي بينها لهم نبيهم الخاتم ﷺ ـ قولاً وعملاً ـ وكما بينها الصفوة عليهم صلوات الله وسلامه.

ولهذا ترك الحق سبحانه علامة واضحة بعد إهلاك قوم لوط عليه السلام لتكون عبرة، وهي تسمى «بحيرة قوم لوط» ـ واختصار الاسم إلى بحيرة لوط خطأ ـ[1]، وقد تكونت هذه البحيرة بعد إمطار قراهم بحمم النار والكبريت، وتغشتها سحب من الأبخرة والتي تحولت إلى ماء كريه الطعم، فأصبحت بحيرة نتنة، خبيثة مستقزرة، أشبه ما تكون بعملهم بما فيه من قذارة ودنس.

---

(١) ومن الأخطاء الشائعة كلمة «لوطى» بل يقال من «الشواذ جنسيًا».

يقول تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (الذاريات: ٣٧).

ليت كل مؤمن غيور على دينه يتأمل الآيتين الكريمتين من سورة النساء ليعرف موقفه من هؤلاء الكافرين والمنافقين ولا يتخذهم أولياء: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (النساء: ١٣٨-١٣٩).

وهكذا العزة لله في الدنيا والآخرة ولا ينالها إلا أولياء الله سبحانه وتعالى.





شعيب عليه السلام
خطيب الأنبياء

(شعب): شعب الشيء أي أصلحه.

(ش ع ب): والشعب هي الأغصان.

وقوم مدين هم (أصحاب الأيكة).

(أ ي ك): (الأيك) الشجر الكثيف الملتف والواحدة (أيكة)، فمن قرأ «أصحاب الأيكة) فهي الغيضة، ومن قرأ «أصحاب ليكة) فهي اسم القرية.

ويقال أن اسم (شعيب) هو بالسريانية «يثرون» ومعناه الشريف النسب.

وكل هذه المعاني جاءت في القرآن:

أصحاب الأيكة يريدون أن يكون طريق الله ـ سبحانه ـ عوجًا مائلاً حسب هواهم، وأخاهم عليه السلام يريد الإصلاح لهم كما أخبر القرآن: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ (هود: ٨٤)، هذا عندما تحدث عن نسبه وأما في الشعراء فقد برأه من أخوته لهم فيقول سبحانه: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (الشعراء: ١٧٦-١٧٨).

وكان أهل مدين كفارًا يقطعون السبيل ويخيفون المارة ويعبدون الأيكة، وهي شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها، وكانوا من أسوأ الناس معاملة يبخسون المكيال والميزان، فأرسل الله ـ سبحانه ـ لهم شعيبًا عليه السلام فآمن بعضهم وكفر أكثرهم، فأنزل الله سبحانه بهم العذاب.

ومن بلاغته عليه السلام أنه ذكرهم بالنعمة قبل التحذير بالنقمة، وبين لهم أن إنقاص المكيال والميزان يمحو البركة في الدنيا مع عذاب الآخرة.

ومن بلاغته عليه السلام التلطف في العبارة والدعوة إلى الحق قولاً وعملاً والمزج بين الترهيب والترغيب.

وقد تحلى عليه السلام بكل الصفات الحميدة - مثله في ذلك ككل الأنبياء - والتي يجب على ورثتهم أن يتحلوا بها: الحلم والصفح والثبات ورجاحة الفكر وحسن الخلق والقدوة.

وهذا يفسر مقابلته الإساءة حيث وصفوه بالسفه، فلم يطش ذلك حلمه، لأن الشقة بعيدة بين رجل اصطفاه ربه رسولاً فهو في الذؤابة من الخير والبر، وبين سفاهة قوم تهاوت عقولهم إلى عبادة الأحجار، وما وصفوه بالحليم الرشيد إلا سخرية واستهزاءً، يقول تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (هود: ٨٨).

ومن أشد المواقف تأثيرًا في النفس لما نعى عليه السلام قومه إلى أنفسهم موبخًا ومؤنبًا ومقرعًا بعد أن رأى عذابهم وهلاكهم، وبعد أن أدى ما كان واجبًا عليه من البلاغ التام والنصح الكامل والحرص على هدايتهم، وهذا الموقف الرائع يذكرنا بالنبي الخاتم ﷺ وهو يخاطب الصرعى من صناديد قريش بعد موقعة بدر مناديًا عليهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «.. **فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًا؟**» (جزء من حديث متفق عليه).

يقول سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (الأعراف: ٩٢-٩٣).

وقد جاء في الحديث المرفوع الذي رواه ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان كثير البكاء على قومه بعد هلاكهم وذلك لتمنيه عدم تكذيبهم له، وقد أوحى الله سبحانه إليه: «يا شعيب أتبكي خوفًا من النار أم شوقًا إلى الجنة؟ قال: بل من محبتك يا رب».

ومن أهم الدروس في قصته عليه السلام بيان أن التطفيف ليس بالأمر الهين، بل هو من أشد الكبائر، وقد نزلت فيه سورة بدأت بالويل وهي كلمة عذاب أو وادٍ في جهنم لو سيرت فيه جبال الدنيا لذابت من شدة حره.

يقول تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (المطففين: ١-٦).

وقال السدي وغيره: أنه لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وبها رجل يقال له أبو جهينة له مكيالان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر، فأنزل الله سبحانه هذه الآيات الكريمة من سورة المطففين وهي آخر ما نزل بمكة ـ وترتيبها حسب المصحف ٨٣ وحسب نزول الوحي ٨٦ ـ.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه ﷺ ذكر «خمس بخمس» ومنها «**ولا طففوا الكيل إلا ومنعوا القطر من السماء**» (جزء من حديث رواه الطبراني في الكبير، وسنده قريب من الحسن).

وجاء في كتـاب (الكبائر) للإمام الذهبي: «أن أحد الصـالحين قال: دخلت على مريض وقد نزل به الموت فـجعلت ألقنه الشهادة ولسـانه لا ينطق بها، فلما أفاق قلت له: يا أخي مالي ألقنك الشهـادة ولسانك لا ينطق بها؟ فقال: يا أخي لسان الميزان على لساني يمنعني من النطق بها، فقلت له: بالله أكنت تزن ناقصًا؟ قال: لا والله ولكن ما كنت أقف مدة لاختبر صحة ميزاني» (باب كبيرة التطفيف في الكيل والميزان).

فهذا حال من لا يعتبر صحة ميزانه فكيف حال من يزن ناقصًا؟!

وجاء في المأثور أن ابن عـمر رضي الله عنهما كان يمر بالأسواق، وينادي قـائلاً: اتقوا الله وأوفوا الكيل والميـزان، فإن المطففين يوقـفون حتى أن العرق ليلجـمهم إلى أنصاف آذانهم.

والإسلام جعـل الوزن أمانة، والكيل أمانة، ونهى عن الغش وحـرمه، وقد أمر النبي ﷺ صاحب الطعـام الذي أصابته السماء بأن يجعله فـوقه حتى يراه الناس وقال له ﷺ: «**من غشنا فليس منا**» (جزء من حديث رواه مسلم).

وأيضًا من الكبائر التي أشاعـها قوم شعيب عليه السلام (قطع الطريق) وذلك برفع السلاح على عباد الله لـلسرقة والترويع، وقد توعدهم الله سبـحانه - ومن يفعل مثلهم - بالذل في الدنيا والعذاب في الآخرة، وذلك لأنهم يحاربون الله ورسوله كما قال مالك والأوزاعي والشافعي وغيرهم.

يقول تعالى: ﴿**إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ (المائدة: ٣٣).

وقوم شعيب عليه السلام أول من سن (المكوس) - وهي من الكبائر أيضًا - كانوا يأخذون العشور من الناس بالقتل والترويع، فكانوا من الظلمة القساة لأنهم يأخذون ما لا يستحقون، وقد توعد سبحانه من يفعل مثلهم بالعذاب الأليم يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الشورى: ٤٢).



يوسف عليه السلام
الكريم أحد النجباء السبعة

(يوسف): أ س ف ـ الأسف أشد الحزن وقد (أسف) على ما فاته، و(يوسف) فيه ثلاث لغات بضم السين وفتحها وكسرها، وحكى فيه الهمز أيضًا.

ويتضح هذا المعنى فيما قاله يعقوب عليه السلام، وقد أضاف الأسف وهو أشد الحزن والحسرة إلى نفسه، ومن الإعجاز القرآني أن (الأسف ويوسف) فيهما من التجانس غير المتكلف، وأن الأولى تعطي معنى الثانية.

يقول تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٨٤-٨٦).

(يعقوب) المشتق من العقب بعد إسحق، ويقال أنه خرج وهو آخذ بعقب أخيه فسموه (يعقوب) أي: إسرائيل الذي ينتسب إليه (بنو إسرائيل).

ومن بلاغة القرآن أنه إذا خاطب الكتابين قال: «يا بني إسرائيل» ولم يقل: «يا بني يعقوب» حتى يذكرهم بالاسم الذي فيه تذكرة بالله سبحانه، وذلك لأن كل اسم فيه «ايل» فهو «الله» بالعبرانية، وكأن النداء «يا بني إسرائيل» أي «يا بني عبد الله».

وعندما أشرف عليه السلام على الموت أوصى بالمحافظة على عقيدة الإسلام اتباعًا لوصية جده إبراهيم عليه السلام، وليس كما قالوا أنه أوصاهم بالبقاء على يهوديتهم والإعراض عن أي دين غيره، وتحريفهم لما جاء في كتبهم المقدسة والتي بشرت

بوضوح بالنبي الخـاتم ﷺ (إلى أن يجيئ الذي هو له وإليه تجتـمع الشعوب) (سفر التكوين).

وقد كذبهم القرآن في كل مـا ادعوه - زورًا وبهتانًا -: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٢)، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ (يوسف: ٧).

﴿لِّلسَّائِلِينَ﴾، تدل على أن هناك من سـأل؟ إنهم اليهـود بعثـوا إلى محـمد ﷺ من يسأله لعلمهم أن العـرب قد تعرف شيئًا قليـلاً من أخبار بعض الأمم السابقة كعـاد وثمود وسبأ وغيرها، وهـذا يتضـح من أمـثالهم المتداولة بينهم أو من مشاهدتهم للأطلال أثناء رحلتـهم إلى الشـام، وأما قصة يوسف عليه السلام فكانوا لا يعرفـون عنها شيـئًا، ولهـذا عندما نزلت سورة يوسف المكـية - ترتيبـها في المصحف ١٢ وحـسب نزول الوحـي ٥٣ - وتتفق مع الكثـير مما جـاء في الكتب المقدسـة قـبل أن تحرف، تأكد لعدد مـن اليهود أن هذا القرآن وحي من السـماء وأعلنوا إسلامهم.

يقول ابن الجوزي وهو أكـبر الدعاة في عصره وقد عـاش في القرن السادس الهجري: «إنك لو قرأت سورة يوسف جيدًا لأدركت أنه عليه السلام ما مدح إلا بصبره على عدم ارتكاب المعصية، ومخـالفة الهدى، ولو كان وقع في المحظور من كان يكون؟ وهكذا صبـر ساعة على المعصـية بابًا لذكر دائم في الدنيـا والآخرة» (من خواطر ابن الجوزي).

وأيضًا صبره جـعله على رأس النجباء السبعة الذين يظلـهم الله سبحانه يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله، ومنهم كما جاء في الحديث المتفق عليه: **«رجل دعته امرأة ذات منصبٍ وجمال، فقال إني أخاف الله»**.

وكذلك كـان صبره على المعصـية سببًـا في مدحه من الله سبـحانه بأنه من عـباده المخلصين، وقـد علم الله تعـالى أنه ثبت في ذلك المقـام وجـاهد نفسـه مجـاهدة أولي العزم ناظرًا في دلائل التحـريم حتى استحـق الثناء العطر والذكر الحسن، كقـوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (يوسف: ٢٤).

وعندما سـئل رسول الله ﷺ عن أكـرم الناس؟ قال: «**يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله**» (جزء من الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه).

وذلك لأنه جمع مكارم الأخلاق مع شرف النبوة مع شرف النسب، وأنضم إليه شرف علم الرؤيا وتمكنه منه، ورياسة الدنيا وملكها بالسيرة الحسنة، وحياطته للرعية وعموم نفعه إياهم وشفقته عليهم، وإنقاذه إياهم من تلك السنين الجافة.

ولما كان علم التعبـير من العلوم الشريفة فقد اخـتص الله سبحانه به يوسف عليه السلام، وعندما يقص رؤياه على أبيـه، يعرف بأن الشرف والعلو سيأتيـه من جهة تعلم هذا العلم الشريف.

وأما رؤيته عليه السلام فهي - كـما ذكـر ابن سيـرين - تدل على الظفر والـنصر، والسعة بعد الضيق، والفرج بعد الكرب، والنصرة بعد الظلم.

وهذا ما جـاء في آخر قصـته عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف: ١٠١).

تتجلى روعة القصص القرآني في قصته عليه السلام وفي السورة التي تحمل اسمه، وقد ذكر النسفي في تفسيره: «إن الله تعـالى لم ينزل كتابًا إلا وفيه سورة يوسف عليه السلام تامة كما هي في القرآن العظيم» (جزء ٢).

جاءت القصة في صورة مذهلة من النظم القرآني العجيب والفريد معًا، فقد تفوقت - كشأن القصص القرآني كله - على كل ما عرف العرب من أساليب الكلام: شعرًا ونثرًا وإرسالاً وسجعًا، ومع هذا فهي ليست من ذلك كله في شيء، بل هي كما أخبر القرآن عن نفسه، ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ (الواقعة: ٧٧-٧٨).

تبدأ القصة في الجب حيث الظلام والوحشة والغوص في أغواء النفس، مع التناغم والتراسل بين الحزن العميق والتسليم لأمر الله سبحانه، ثم تبدأ الأحداث تتوالى وحتى تصل إلى ذروتها حين يتحدث عليه السلام بضمير المتكلم مبدئًا نفسه وتواضعًا لله سبحانه، وحتى لا يكون مزكيًا نفسه، وأن أمانته كانت من توفيقه سبحانه وعصمته له، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (يوسف: ٥٣).

ولقد أخطأت الإسرائيليات في الكثير من قصته عليه السلام، قالوا أنه قص رؤياه على أبيه وأخوته، وأنهم لما خرجوا أرسله وراءهم يتبعهم فضَلّ الطريق، والخطأ واضح فإنه - أي يعقوب عليه السلام - كان أحرص عليه من أن يبعثه وحده، وأما ما جاء في آية المراودة فالإعراض عن التحدث عنها أولى بنا، فالله سبحانه عصمه وبرأه ونزهه عن الفاحشة وحماه عنها وصانه منها، وحديثهم يعتبر من الشطط والذي يؤدي إلى الكفر لأنه طعن في نبي كريم.

وأما الرؤيا فلم تنكرها الإسرائيليات وإن كانت ذكرتها بصورة مختلفة في أن البقرات السمان ثم الضعاف خرجن من النهر.

وأما خادمهم في العصر الحديث جاء لينكر هذا الجانب تمامًا من البشر، ويرى أن الغريزة الجنسية هي مصدر كل الأحلام لإشباع تلك الرغبة المكبوتة

وغيرها من الرغبات . . !! والقرآن يؤكد وقوع الرؤيا الصادقة، وسورة يوسف تؤكد هذا، بل إن واقع الناس يؤكد هذه الحقيقة، وقد أكدت الدراسات الحديثة ذلك واعتبرت نظرية خادم صهيون والمعروفة باسم «معالم التحليل النفسي» ما هي إلا هراء في هذا الأمر بالذات، وقد أقبل العلماء في العالم لإعادة دراسة كتاب «تفسير الأحلام» لابن سيرين جعله أساسًا هامًا لهذا العلم.

وأما ما ذكرته الإسرائيليات عن مقابلة الذئب مع يعقوب عليه السلام، والتي تفنن القصاص فيها فإنها لا سند لها، وخاصة وأنه لا يعرف لغة الطير والحيوان غير سليمان عليه السلام.

يقول الذئب: «يا نبي الله والذي اصطفاك نبيًا ما أكلت له لحمًا ولا مزقت له جلدًا، وما لي به علم، وإنما أنا ذئب غريب أتيت من أرض مصر في طلب أخ لي فقدته منذ أيام وجاءوا بي إليك وقد حرم الله علينا لحوم الأنبياء».

ووجه الطرافة التي أعجبت القصاص في هذه القصة الخيالية: إنسان يحاول قتل أخيه، ووحش يبحث عن أخيه.

وأما الصحيح أنهم - كما أخبر القرآن - وضعوا دم كذب على قميصه، ولكنهم نسوا أن يخرقوه، ولهذا قال أبوهم عليه السلام كما أخبر الحق سبحانه: ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف:١٨).

والإسرائيليات شوهت صورة يعقوب عليه السلام بأن جعلته رجل دنيا كل همه الإكثار من الماعز والأغنام، وهو رجل ضراع يأخذ لنفسه القوي منها ويترك الضعاف لغيره، وحاشا لله أن يكون «الكريم» كما وصفه النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم قد فعل ذلك أو أنه مكث عند خاله عشرين عامًا دون أن يدعوه مرة واحدة إلى عبادة الله سبحانه وترك عبادة الأصنام.

وقد أنصفه القرآن في أكثر من موضع حين ذكر أنه تحلى بالصبر الجميل، وأنه ذو علم، وأنه ظل يبكي ابنه حتى أبيضت عيناه من الحزن، وأنه كان يدعو ربه: «يا ذا المعروف الدائم الذي لا ينقطع معروفه أبدًا ولا يحصيه غيرك فرج عني» (الدعاء ذكره التسقي في تفسيره).

أين هذا السمو، من الانحطاط الذي صورته الإسرائيليات وهو يجمع بين الأختين[1]، وحياته كلها غش وكذب وخداع؟!

أبدًا ليست هذه حياة يعقوب عليه السلام والذي لا يطلب إلا الطعام والكساء، بل هي «إسقاط» ـ والمصطلح من قاموس خادمهم ـ لما يحدث في حياتهم.

يقول تعالى مخبرًا عن نبيه عليه السلام شاكيًا له وحده دون خلقه: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف: ٨٦-٨٧).



(١) كان في شريعة يعقوب عليه السلام يحل الجمع بين الأختين، وقد جمع بين (ليا وراحيل) ولكنه لم يكن لغرض دنيوي كما تصوره الكتب المحرفة، ثم جاءت شريعة موسى عليه السلام وحرمت الجمع بين الأختين. ويوجد النسخ منذ شريعة آدم عليه السلام إلى شريعة عيسى عليه السلام، وفي هذا الرد على من ينكر الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم والذي لا يتعدى عدده أصابع اليدين.

أيـوب عليه السلام
العبـد الصابـر

اهتمت المراجع العالمية بمعنى اسم «أيوب» عليه السلام وذلك لأن النشيد المنسوب إليه يجد اهتمامًا بالغًا في الآداب العالمية باعـتباره قطعة أدبية فريدة، وقد جاء في تلك المراجع وغيرها من القواميس ودوائر المعارف:

(أيوب): ومعناه الرجل المستقيم، يتقي الله سبحانه ويحيد عن الشر.

(آئب): أي راجع من الضيق والشدة إلى الفرج والراحة.

(أيوب): ومعناه الذي يصرخ صرخة الألم من المكروه.

(أيوب): الذي يبكي، صرخة الويل، مكروه.

ومن الإعجاز القرآني أن كل هذه المعاني اشتـملت عليها «كلمة واحدة» في وصف موجز بليغ للعبد الصابر عليه السلام: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص: ٤٤).

ومعنى ﴿أَوَّابٌ﴾، أي كثيـر الرجوع إلى الله سبحانه بالتـوبة والإنابة والعبادة والذكر في جميع الأوقات.

اجتمع له عليه السلام منذ شبابه الجمال والمال والزوجة الحسناء والمكانة العالية، ثم تبدلت الأيام من الرخاء إلى الشدة.

ذهب المال، وهلك الأولاد، وأصـاب البـلاء جسـده، ولم يبق له إلا قلبًـا عامرًا بالإيمان ولسانًا شاكرًا، فكان يدعو قائلاً: الحمد لله الذي أعطى وأخذ.

وقد روى وهب بن منبـه وغيره بأن زوجته قـالت: يا أيوب لو دعوت ربك يفرج عنك، فـقال: قد عشت سـبعين عامًا صحـيحًا، فهل قلـيل لله أن أصبر

سبعين سنة؟ وقيل: أنه خر ساجدًا وهو يقول: اللهم بعزتك لا أرفع رأسي أبدًا حتى تكشف عني، فما رفع رأسه حتى كشف عنه، وهذا ما ذكره القرآن: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ (ص: ٤١).

وقد نسب المرض إلى الشيطان تأدبًا مع ربه سبحانه، ثم يجد عين ماء فيغتسل من مائها، فيذهب البلاء عن جسده، وهذا ما أخبر به القرآن: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٣-٨٤).

وقد أسهب المفسرون كثيرًا في تفسير الآيتين:

يقول النفي: من بلاغة القرآن أنه جاء بكلمة «الضُر» بالضم وليس بالفتح لأنها بالضم أي الضرر من المرض، وأما بالفتح فهو الضرر من كل شيء.

وأما الطبري فيقول: أنه لم يشتك بل أخبر بأنه لا يقدر على النهوض للصلاة لضعفه من شدة المرض، والشكاية لله سبحانه منتهى القرب وبينما الشكاية منه ولغيره غاية البعد.

والرازي يقول: إنه عليه السلام ألطف في السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة، ولم يصرح بالمطلوب لأنه سبحانه أعلم بحاله، فكأنه جمع بين سؤال يعقوب وإبراهيم ـ عليهما السلام ـ.

وبعض المفسرين استشهد بالحديث الصحيح الذي رواه الشيخان وفيه ما معناه أن أشد الناس بلاءً الأنبياء، وأن ابتلاء المؤمن حسب دينه وحتى يمشي وما عليه خطيئة (نص الحديث في الصحيحين ورواه النسائي وابن ماجه).

وقد قيل أن الله سبحانه ابتلاه رحمة به، وحتى يتأسى أهل البلاء به في تحمل أشد البلاء، والذي ضرب به المثل في الصبر.

وقد ورد في بلاء أيوب عليه السلام الكثير من الروايات الواهية والتي لا سند لها وأغلبها شطحات لا يقرها الفعل، وقد افتتن بها القصاص - كعادتهم -، فبالغوا في مرضه وجعلوا جميع الناس تنفر منه وتبتعد عنه، وبالغوا في عدد السنين التي لازمته في مرضه، وأن زوجته كانت تقوم بالخدمة في البيوت لتحصل على رزقه، بل وجعلوها تبيع ضفائرها وكان هذا سببًا في قسمه عليه السلام لأن يضربها مائة سوط، والصحيح أنه أقسم على ذلك لأنها أبطأت عليه يومًا، وقد أوحى الله سبحانه بعد ذلك أن يأخذ مائة عود فيضربها ضربة واحدة، وهذا من الفرج لمن يتقي ربه ويطيعه، ولزوجته الصابرة المحتسبة رضي الله عنها.

وقد أخطأت الإسرائيليات أيضًا فيما ذكرته أنه عليه السلام ليس من ذرية إبراهيم عليه السلام لأنه ظهر في زمن قبله - حسب قولهم -.

والقرآن ذكر في أكثر من موضع أنه من «ذريته» والضمير عائد إلى الخليل عليه السلام، وقيل: أن نسبه ينتهي إلى إسحق بن إبراهيم عليه السلام، وأن أمه بنت لوط عليه السلام، وأن زوجته ينتهي نسبها إلى يوسف بن يعقوب - عليهما السلام -، وقد ذكر هذا ابن عساكر والرازي والبيضاوي وغيرهم.

هذا وقد وجدت كتابات منقوشة على الحجر في الجزيرة العربية وكلها تثبت ما جاء في القرآن من أنه عليه السلام من أقدم الأنبياء في جزيرة العرب وأنه بعث بعد الخليل عليه السلام، وإن كانت لم تحدد مكانه.

وأما ما ذكرته الإسرائيليات - زورًا وبهتانًا - بأن الله سبحانه سلط عليه الشيطان ليصب ألوانًا من المصائب على رأسه حتى يختبره - حاشا لله جلَّ وعلا علوًا كبيرًا - وحتى أنه عليه السلام نفذ صبره وفكر في الانتحار، وأنه أخذ يلوم ربه أشد اللوم لأنه نبذه وتخلى عنه . . !! ثم يعفو الله سبحانه عنه ويهبه الآلاف من

الإبل وغيرها من الثيران ليعيش حياة سعيدة . . أي أنها صورت الجزاء دنيوي وكأن الآخرة لا تغنيهم في شيء، أما القرآن فقد بين أن البلاء ليس للتعذيب وإنما للاختبار وذلك لإظهار ما في النفس من خير وشر، ثم يكون الجزاء في الآخرة كل حسب عمله؛ كما أخبر القرآن: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٥٥-١٥٧).

وقد جاء في دعوات الرسول ﷺ التعوذ من أشياء منها فتنة الغنى وفتنة الفقر، وأرذل العمر، وفتنة الدنيا، وفتنة النار، وحتى يعلم المؤمن مشروعية ذلك عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: **«اللهم إني أعوذ بك من فتنة النار، ومن عذاب النار، وأعوذ بك من فتنة القبر، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة الغنى، وأعوذ بك من فتنة الفقر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال»** (رواه البخاري في صحيحه في كتاب الدعوات).



ذو الكفل عليه السلام

النبي الصالح والملك العادل

(الكفل): الضِّعف وقيل إنه النصيب.

وكان حكمًا مقسطًا تكفل أن يقضي بين الناس بالعدل، ولهذا سمى «ذو الكفل».

وتقول بعض المراجع: إن الله سبحانه سماه بهذا لأنه تكفل بأمر فوفى به.

وقيل: الكفل هو الضِّعف من الأجر والثواب.

(إلياس): ومعناه الإنكسار والحزن.

(اليسع): ومعناه القاضي بين الناس بالحق.

وكل هذه المعاني ذكرها القرآن مقرونًا بالثناء عليهم، وأنهم من الأخيار.

يقول تعالى: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ﴾ (ص: ٤٨).

وأما (إلياس) فقد أبقى سبحانه بعده ذكرًا حسنًا فلا يذكر إلا بخير، كقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الصافات: ١٢٩-١٣٢).

وجاء في تفسير الجلالين عن ذي الكفل عليه السلام: أنه سمي بذلك لأنه تكفل بصيام جميع نهاره وقيام جميع ليله، وأن يقضي بين الناس بالعدل ولا يغضب فوفى بذلك (من تفسير سورة الأنبياء).

وجاء أيضًا: قيل كفل مائة نبي فروا إليه من القتل (من تفسير سورة ص).

ويربط أهل العلم بينه وبين النبي (اليسع) عليهما السلام، فقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم: أنه لما كبر اليسع عليه السلام، قال: لو أني استخلفت رجلاً على

الناس يعمل عليهم في حياتي حتى أنظر كيف يعمل؟ فجمع الناس، وقال لهم: من يتقبل لي بثلاث استخلفه: يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب، فكان ذو الكفل عليه السلام (وقد ذكر مثل ذلك الكثير من أهل العلم وصحته تقترب من الحسن).

وأما ما جاء في بعض الروايات، واختلف أهل العلم فيه كثيرًا:

ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارًا على أن يطأها، فلما قصد منها مقعد الرجل من امرأته، أرعدت وبكت، فقال لها: ما يبكيك؟ قالت: هذا عمل لم أعمله قط وإنما حملتني عليه الحاجة، فقال لها: اذهبي بالدنانير لك ووالله لا يعصي الله الكفلُ أبدًا، فمات من ليلته فأصبح مكتوبًا على بابه قد غفر الله للكفل**».

وبينما نجد الترمذي يرويه من حديث الأعمش وقال حسن، نجد أن أبا حاتم يرى أن في إسناده نظر، وأما ابن حبان فقد وثقه، ولم نجد للرازي سوى هذا الحديث عنه.

والحديث بوجه عام ليس فيه قدح بذي الكفل كرجل صالح هم بسيئة ولم يعملها، وتعهد ألا يعصي ربه سبحانه فغفر له.

ولكن الحديث بهذه الرواية ينفي النبوة عنه، وذلك لأن الأنبياء - عليهم السلام - هم صفوة الخلق، وكما وصفهم القرآن: ﴿**إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ**﴾ (ص: ٤٦-٤٧).

وربما كان الحديث عن رجل آخر اسمه «الكفل» وخاصة وأنه لم يذكر «ذو الكفل».

وكما ربط العلماء بينه وبين اليسع - عليهما السلام -، ربطوا أيضًا بينه وبين إلياس - عليهما السلام -، فقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٥-٨٦)، فقد قيل أن ذا الكفل هو ابن أيوب - عليهما السلام -، بينما رجح بعض المؤرخين أنه ابن إلياس عليه السلام.

وجاء في تفسير الوسيط: اختلف في نبوته، وإن كان أكثر العلماء تقول: إنه نبي من أنبياء بني إسرائيل، وإن لم تعرف المحنة التي صبر عليها ذو الكفل (من تفسير سورة الأنبياء).

وهكذا ارتبط الأنبياء الثلاثة باختلاف العلماء بينهم: يرى البعض أن ذا الكفل عليه السلام لم يكن نبيًا وإنما كان رجلاً صالحًا، ويرى غيرهم أنه نبي وحجتهم في ذلك أن القرآن ذكره في أكثر من موضع مع الأنبياء وهذا هو الرأي الراجح.

وأما اليسع عليه السلام فقد أكدت أكثر المصادر أنه اختار ذا الكفل ليقوم مقامه في القضاء بين الناس، ولكنهم أجمعوا على أنه نبي ظل متمسكًا بمنهاج النبي إلياس عليه السلام.

وأما إلياس عليه السلام فيقول بعض العلماء أنه هو إدريس عليه السلام وحجتهم حديث الإسراء، وهذا الرأي ضعيف.

ومع أن قصته عليه السلام جاءت مختصرة وواضحة في سورة الصافات عندما دعا قومه لعبادة الله سبحانه وترك عبادة صنم لهم، فكذبوه وخالفوه وأرادوا قتله، فهرب منهم واختفى عنهم، حتى أهلك الله سبحانه الملك الظالم وولى غيره، فأتاه عليه السلام فأسلم وأسلم الكثير من قومه، كما أخبر القرآن: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ (الصافات: ١٢٣-١٢٥).

ومع كل هذا الوضوح إلا أن بعض الكتب امتلأت بالقصص الواهية من الإسرائيليات عنه وخاصة اجتماعه مع الخضر عليه السلام كل عام عند عرفات، وما قاله جبريل عليه السلام: «يا إلياس طر في الأرض حيث شئت مع الملائكة، فقد كساك الله الدين وقطع عنك لذة المطعم والمشرب، وجعلك آدميًا سماويًا أرضيًا»، وأيضًا ما قيل مرويًا عن كعب الأحبار: «أنه لما ولد إلياس طلع منه نور ساطع أضاء منه المشرق والمغرب، فقال بنو إسرائيل سلوا عند امتداد هذا النور، فتتبعوه فوجدوا مولودًا ينتهي نسبه إلى هارون عليه السلام».

والرأي أنه عليه السلام شأنه كشأن كل الأنبياء والرسل، وأنهم بشر اصطفاهم الله سبحانه من بين عباده وتجلت عليهم مشيئته ورباهم وأدبهم وفضلهم على العالمين، وأن الغاية من بعثتهم إلى البشر هو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وكل منهم كان يبعث إلى قومه في زمان معين ومكان معين، حتى كان النبي الخاتم ﷺ فأرسله الله سبحانه للناس كافة إلى يوم القيامة.

وإلياس عليه السلام لم يميزه القرآن على غيره من الرسل، وقد وصفه بالإخلاص والإحسان، على عكس ما روجت له الإسرائيليات وجعلت منه آدميًا سماويًا أرضيًا مع الخضر - عليهما السلام -.

وقد أورد العلامة السخاوي في كتابه «المقاصد الحسنة» قصة اجتماعهما وعلق عليها بقوله: إلى غير ذلك مما هو ضعيف كله، مرفوعه وغيره ولا يثبت منه شيء.

وهذا ما عناه رسول الله ﷺ بقوله: «**والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شيء فيخبرونكم بحق فتكذبونه أو بباطل فتصدقونه**» (جزء من حديث صحيح وقد رواه أحمد من وجه آخر).

وقد جاء في الحـديث المروي في المسند والترمذي عن أمـير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ مرفوعًا وموقوفًا: «**من ابتغى الهدى في غيره أضله الله**».

ولهذا حـذر الله سبحـانه المؤمنين من هذه الأمور التـي تؤدي إلى الضلال: ﴿**وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ**﴾ (آل عمران: ٦٩).

يونس عليه السلام
الساجد في مكان لم يسجد فيه أحد

يقول المفسرون: إن ذا النون هو يونس بن متى، وإن (النون) بمعنى الحوت وقد نسب إليه.

وجاء في المعاجم: (ن و ن) النون هو الحوت، (وذو النون) هو لقب يونس بن متى عليه السلام.

(نينوي) لم يرد الاسم في القرآن ومعناه: جميل، وهي عاصمة مملكة آشور: واسمه في الأسفار القديمة **(يونان)** ومعناه: الطائر الحزين وقيل: الطائر الحبيس.
وهو نبي كريم خصه الله سبحانه بأن جعل دعوته نجاة لكل مؤمن.

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له**» (رواه الإمام أحمد والترمذي).

يقول سبحانه: **﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾** (الأنبياء: ٨٧-٨٨).

جاء في تفسير النسفي: «روي أنه برم بقومه لطول ما ذكرهم فلم يتعظوا وأقاموا على كفرهم، وظن أن ذلك يسوغ له البحث عن مكان آخر يكون أهله أكثر قبولاً للدعوة وأقل عداوة له، وهو لم يفعل ذلك إلا غضبًا لله وبغضًا للكفر وأهله، ولكن كان عليه أن يصابر وينتظر الإذن من الله سبحانه في المهاجرة، فابتلي ببطن الحوت» (من تفسير سورة الأنبياء).

ويقول أهل العلم: إن الله مـا نجاه إلا لإقراره على نفسـه بالظلم، ولهذا لما نبذه الحوت لم يكن مذمومًا، أي أنه دخل في بطنه ملومًا، وخرج منه غير ملوم ولا مذموم، ولولا أن كان من الذاكرين لصار في بطن الحوت إلى يوم القيامة.

ويقول العلامـة السوري الشيخ/عبـد القادر المغربي ـ عضـو المجمع اللغوي بالقاهرة سابقًا ـ: «أما الاقتـراع بين ركاب السفينة الذي ألجأ يونس إلى إلقائه في البحر، فسببـه ـ والله أعلم ـ اكتظاظ السفينة بركابها وأثقـالها، وغلبة العواصف واعتلاج الأمواج عليها، فرأى أهلها أن يخفوا عنها فألقوا أثقالها، ثم لما لم يفي ذلك بالحـاجـة، اضطروا أن يلقـوا بعض الركـاب أيضًـا، ورأوا من العـدل أن يقترعوا بينـهم على من يلقونه، فأصابت القرعة يونس، فـألقي بنفسه مكرهًا أو مختارًا، ولم يكن وقوع القرعة عليه من دون سائر رفاقه، والتقامه الحوت له أثرًا من آثار الاتفاق المحـصن، وإنما هو لعمري أثر من آثار المشـيئة الإلهـية: ليكون ذلك جزاءً لمغـاضبـته، ومنبهًـا له على فعلتـه، ثم إن يونس لما استـقر في بطن الحوت، وتجرد بالكليـة عن عالم الأسباب إلى عالم الملكوت، وشـعر بخطر ما هو فيه، وخطأ مـا كان منه، انتبه إلى وجوب الرجـوع إلى ربه بالتوبة والإنابة، فرفع صوته في تلـك الظلمات قائلاً: ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، وكأن المعنى في هذه الاستغـاثة: إني يا رب قد ظلمت وغفلت عن بعض سننك الكونية في إيمان الأمم وجحودها، وإنحطاطها وصعـودها، وانتعاشها وخمودها فـسألتك لأمـتي ـ أهل نينوي ـ مـا لم تجـر عادتك به، ومـا هو مـدبر لسننك الحكيمة، ومـشيئتك القـديمة، فسقتني يا رب إلى هذه الظلمـات، وجعلتني في هذا القبـر المتحرك قبل أوان الموت، منبـهًا لي بذلك إلى أن تأخير انتـقامك عن قومي لم يكن ضعفًا منك، ولا عجزًا عن تبديل السنن والنواميس الكونية، وإنما هو اطراد لها، فلا يختل نظام الكائنات، وتنبيه للبشر إلى لزوم مراعاتها، وإنك

يا رب إذا شئت غيرت سنن الكون ونواميسه، كما غيرت نواميس الهواء والحياة والتنفس ودورة الدم في الجسد، منذ حفظت عليَّ حياتي، ودبرت لي معيشتي وأنا في بطن الحوت.

فلا غرو أن تكون تلك التسبيحة من سيدنا يونس، وهذا الاعتراف بأنه كان من الظالمين، خير وسيلة لقبول توبته وعفو الله عنه» (من تفسير سورة القلم).

يقول تعالى: **﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾** (الصافات: ١٤٢-١٤٦)، الإعجاز القرآني يتجلى واضحًا في كلمتين: **﴿فَالْتَقَمَهُ﴾**، والثانية **﴿يَقْطِينٍ﴾**.

بينما الكتب المحرفة قالت عن الأولى: «ابتلعته سمكة كبيرة»، وعن الثانية «شجرة العنب»، الكلمة الأولى «فالتقمه» في القرآن توحي بعدم الضرر، وخاصة وأن الحوت وإن كان أكبر الكائنات حجمًا إلا أنه ليس له أسنان ولا يتغذى إلا على الكائنات الدقيقة، وبينما الكلمة الأخرى «ابتلعته» توحي بالهلاك.

وأما شجرة يقطين وهي «القرع العسلي» فأوراقه كبيرة جدًا ومليئة بالمضادات الحيوية الطاردة للحشرات الضارة، على العكس من شجرة العنب.

هذه قصة سيدنا يونس عليه السلام الذي قال عنه النبي ﷺ: **«لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى»** (رواه البخاري في صحيحه).

ولكن ماذا تقول الإسرائيليات في النبي «يونان» كما تسميه الأسفار القديمة؟

لقد ركزت على أمرين أبعد ما يكونا عن العقل: جعلته يغضب من أجل نعله، ومن أجل عدم السماح له بالتماس دابته، وأنه امتنع عن تبليغ الرسالة إلى الأشوريين بغضًا فيهم، وأنه غضب على ربه ـ حاشا لله ـ لأنه عفا عنهم.

وشتان بين النهاية في قصته ﷺ في القرآن الذي ذكره في جملة الأنبياء الكرام، وكما جاءت في الأسفار القديمة: يائسًا، حزينًا، متمنيًا الموت عندما يبست شجرة الكروم.

وأما أهل الإلحاد - ومن على شاكلتهم - ممن لا يسلمون بشيء على الإطلاق إلا إذا تمشي مع العقل وحده، فتراهم يتساءلون: كيف يعيش في بطن الحوت حينًا من الزمن، ودون أن يخدش له لحمًا أو يكسر له عظمًا؟ وأما إذا كان الأمر من أن واحدًا من الأنواع المسمى بالدرفين التقطه بفمه ولم يبلعه وألقاه على الشاطيء فهو أقرب إلى العقل!!

وهكذا تصل بهم رحلة النفس الهابطة أو ما يمكن أن يسمى «الجدل الهابط» والذي تخصصوا فيه هم والعلمانيون، إلى وجود التناقض بين العقيدة والعقل . . !!

ونحن نسألهم بدورنا: كيف استطاع العقل البشري المحدود أن يجعل الإنسان يعيش في بطون الغواصات أيامًا متطاولات، تحت البحار الطاميات، ويطير مثل ذلك في أجواز السموات؟

إننا كمسلمين نؤمن حق اليقين أنه سبحانه القادر على كل شيء، وأنه خلق العقل البشري، ومهد له السبيل للوصول إلى كل ذلك، وأنه سبحانه يستطيع أن يغير نواميس ما في الكون كيف يشاء، وأنه سبحانه أمد عبده النبي الصالح يونس بن متى ﷺ ببعض الأسباب والتي حافظت على حياته، يقول تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (البقرة: ١١٧).



موسى عليه السلام
من أولي العزم

(موسى) اسم رجل، وقيل كما جاء في المعاجم، ما وجد بين الماء والشجر، ويقال أن (موسى) اسم عربي من مقطعين: (مو) وهو في لسان العرب أي (الماء)، و(سا) وهو العشب، وقد لقيه آل فرعون بين الماء والعشب.

(هارون) ومعناه: الهائب وهو المطيع، وقيل أنها من (هـ ر و) وهي السكون والهدوء والراحة، وعندما شرع موسى عليه السلام يلومه من موقفه من بني إسرائيل عندما عبدوا عجل السامري، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: وكان هارون هائبًا مطيعًا عليه السلام.

(أشعيا) ولم يذكر الاسم صراحة في القرآن ومعناه: الخلاص وهو من الأنبياء في مملكة بني إسرائيل.

(صفوريا وشرفا) بنات شعيب عليه السلام، تربيا على الفضيلة والمحافظة على النفس، وعدم الخروج للعمل إلا للضرورة.

(مصر) واسمها القديم «كيميت» وتعني الأرض السوداء بسبب خصوبتها، وهي تعتبر أول حضارة في تاريخ البشرية.

(فرعون) ومعناه: البيت العظيم والباب العالي والشمس، وهو من ملوك مصر القديمة.

(آسية) هي امرأة فرعون مصر، وهي امرأة صالحة وكانت تسمى «إيت نفرت» ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم سماها «آسية».

وقد جاء في معنى دعاء موسى عليه السلام: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ (طه: ٢٩-٣١).

قال العلماء: ما نفع أخ أخاه كما نفع موسى هارون فقد طلب له من ربه أن يقوي به ظهره، فاستجاب الله دعاءه وجعله نبيًا مرسلاً، ويرى العلماء أن كلمة «هارون» من مقطعين وهما: «ها» أي المناولة والفرح للمؤمن كما جاء في القرآن: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ (الحاقة: ١٩)، والمقطع الثاني وهو «رون» أي الشدة والقوة كما في دعاء موسى عليه السلام.

وقصة موسى عليه السلام تكررت أكثر من غيرها في القرآن، وقد أوضح أهل العلم جوانب الحكمة من ذلك حيث أنها أعظم قصص القرآن، فهي قصة الصراع الأزلي بين الخير والشر؛ الخير في أجمل صورة وأنقاها، والشر في أعتى صوره حيث ادعاء الألوهية، وقد جاءت في مواضع متعددة وبأساليب متنوعة، وباختصار وبسط حسب المقام، ولأنها تقص علينا قصة أعظم أنبياء بني إسرائيل وعلمائهم أمام ملك ظالم لأعظم دولة في العالم القديم، ولأن اتباعه أكثر أتباع الأنبياء يوم القيامة غير أمة محمد ﷺ، وكان له من القوة العظيمة في إقامة دين الله والدعوة إليه والغيرة العظيمة ما ليس لغيره من الأنبياء، وهذا ما بينه النبي الخاتم ﷺ: «**يرحم الله أخي موسى فقد أوذي بأكثر من هذا فصبر**» (حديث متفق عليه).

وإن كانت لا تكاد سورة في القرآن تخلو من ذكر قصته عليه السلام فإن سورة القصص تنفرد بأنها لم تتعرض لأحد من الأنبياء غيره مع فرعون، وهي تبدأ بقوله تعالى: ﴿طسم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: ١-٤).

هذه الآيات من الكتاب المظهر الحق من الباطل لخبر موسى عليه السلام، يقص على المؤمنين الذين تواضعوا في الأرض وملأوها عدلاً ورحمة فكان جزاؤهم الجنة، كما كانت جهنم جزاء فرعون الذي علا في الأرض وملأها بغيًا وفسادًا، ولهذا اختتمت السورة وآياتها (٨٨) بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص: ٨٣).

يقول المفسرون والإخباريون نقلاً عن الكتاب والسنة: إن الله تعالى لما مكن لنبيه يوسف عليه السلام الملك في مصر، أرسل في طلب أبيه وأخوته، ولما انتقل عليه السلام إلى الرفيق الأعلى وتوارثت الفراعنة ملك مصر، وكان بنو إسرائيل يميلون إلى العزلة وعدم الاختلاط، ولما جاء فرعون وكان أعتاهم ظلمًا، وقد أخبره الكهان تأويلاً لما رآه في منامه، بأن نارًا أحرقت دور المصريين ولم تقترب من بيوت بني إسرائيل، بأنه سيخرج من بينهم رجل يكون هلاكه على يديه، فأمر بقتل الذكور عامًا وأن يتركوا عامًا، وكما أخبر القرآن تربى موسى عليه السلام في بيت فرعون وفي أحضان أمه، وبعد أن رأت امرأة فرعون النور يتلألأ من وجهه، وحتى يكون لها هداية في الدنيا ونعيمًا في الآخرة، وليكون لزوجها نقمة له ولجنوده، وقد جاء الأمر لأمه بالإلهام أو الرؤيا أو إخبار ملك، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (القصص: ٧).

وقد جاء في تفسير النسفي: «في هذه الآية أمران ونهاية وبشارتان والفرق بين الخوف والحزن، أن الخوف غم يلحق الإنسان لمتوقع والحزن يلحقه لواقع وهو فراقه والإخطار به، فنهيت عنها وبشرت برده وجعله من المرسلين» (من تفسير سورة القصص).

ويقول بعض المفسرين: أنه رغم كل هذا داهمها الجزع لما علمت بوقوعه في يد فرعون بعد أن تلاعبت به الأمـواج وصاحت (واابناه)، ولم تتماسك إلا بعد أن ربط الله سبحانه على قلبها، فاطمئن واشتد فرحها بأن وعد الله حق.

ولما بلغ موسى عليه السلام أشـده أتاه سبـحانه وتعـالى حكمًـا وعلمًا أي النبـوة والرسالة، ثم كان (يوم الزينة) ويصف القرآن ما حـدث للسحرة في دقة متناهية عندما تأكدوا أن ما يحـدث ليس بسحر ولا شعوذة ولا خيـال، وإنما هو معجزة أجراها سبـحانه على يد عبده ونبيه، كـقوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ (طه: ٧٠).

وقيل أن السحـرة لما سجدوا لله سبحانه رأوا قـصورهم في الجنة، ولهذا لم يلتفتـوا إلى تهديد فرعون لهم بأشـد العذاب، فكانوا أول النهار سحـرة يطلبون الأجر وزادهم فرعون الجـاه والمرتبة، فصاروا في آخره من الشـهداء البررة، وقد أخبر القـرآن عنهم بقوله: ﴿قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ٥٠-٥١).

ثم تنتهي القصة بهلاك فرعون وجنوده، وبعـد إقامة الحجة عليهم بالترغيب والتـرهيب ومنها أعـوام الجدب والطوفـان والجراد والسـوس والضفـادع والدم، وكلما كان موسى عليه السلام ينتهي من الدعاء لرفع البلاء عنهم، ويستـجيب سبحانه لدعائه، يعودون أشد قسوة مما كانوا عليه.

ويصور القرآن تلك النهاية في أبلغ تصوير: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ (يونس: ٩٠-٩٢).

تلك هي نهاية فرعون وهو يعاني سكرات الموت، والأمواج ترفعه وتخفضه وهو عاجز عن أي شيء تمامًا مثل جنوده، ولم يقبل إيمان الإجبار منه، ولهذا خاف جبريل عليه السلام أن تعمه الرحمة فيغفر له، وذلك لأنه لم يبغض أحدًا كبغضه له، يقول الرسول ﷺ: «**قال لي جبريل: لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فم فرعون مخافة أن يناله الرحمة**» (رواه الترمذي وقال: حديث حسن).

وكان هلاكه وجنوده يوم عاشوراء كما قال البخاري في صحيحه، ولهذا صامه اليهود، ولهذا قال النبي الخاتم ﷺ للصحابة: «**أنتم أحق بموسى منهم فصوموا**» (أصل الحديث في الصحيحين وغيرهما).

وهذا القول الكريم من نبي كريم تكريم لنبي كريم كرمه رب العزة سبحانه واختاره برسالته على أهل زمانه: ﴿**قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ**﴾ (الأعراف: ١٤٤).

ومع كل هذا الفضل لم يسلم عليه السلام منهم، فقد تجرأ بعضهم وأنكر نبوته وأنه شخصية من نسج الخيال، وحجتهم أنه لو كان حقيقة واقعة لجاء ذكره على لسان النبي الصالح (أشعيا) والذي ترك لطائف مكتوبة.

وفئة أخرى تصوره عندما يكلمه الله سبحانه كما يكلم الصديق صديقه ـ حاشا لله ـ وأنه كان يرى ربه سبحانه وهو يكلمه، وقد نفى القرآن هذا الشطط: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾ (الشورى: ٥١).

وآخرون قالوا: إن موسى صاحب الخضر ليس هو النبي موسى عليه السلام، وإنما هو شخص آخر اسمه «موسى بن ميشان بن يوسف».

وأما ما تصوره بعض كتبهم وكأنه قائد عسكري لا هم له إلا جمع المال بأي طريق، وقد روى كعب الأحبار أنه ﷺ لما وضع شعيب ﷺ الطعام بين يديه امتنع، فقال له: ألست جائعًا، قال: بلى ولكن أخاف أن يكون عوضًا مما سقيت لهما وإنا أهل بيت لا نبيع ديننا بالدنيا ولا نأخذ عن المعروف ثمنًا، فقال شعيب ﷺ: هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا، فأكل ﷺ من الطعام، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ (الأحزاب: ٦٩).

قيل: لوجاهته أجابه ربه سبحانه لكل ما سأل، وأعطاه كل ما طلب، وأنه شفع في أخيه وطلب أن يكون معه وزيرًا، فجعله نبيًا معه.

وأيضًا لم تترك الإسرائيليات «هارون» ﷺ وأدعت عليه ما لا يمكن لعاقل أن يصدقه، نبي يصنع عجلاً ليعبده الناس . . !!

وقد برأه القرآن من هذا العبث ونص صراحة باسم من صنع لهم العجل وهو «السامري» وكان من قوم يعبدون البقر، وقد ذكر هذا بالتفصيل في شرح حديث القنوت الطويل لابن عباس والذي رواه النسائي وغيره بإسناد حسن وفيه الاسم والذي هو لقبه، وكيفية صنعه العجل من الذهب الذي كان معهم، يقول سبحانه: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ (طه: ٩٥-٩٦).

وهكذا تنتهي قصة نبيين كريمين، وقد استجاب الله سبحانه لأعظم دعاء يدعو به مظلوم على ظالمه، وكان موسى ﷺ يدعو وهارون ﷺ يؤمن، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ (يونس: ٨٨-٨٩).



داود عليه السلام
صاحب الصوت الملائكي

(داود) ومعناه: ذو عزة ويحبه الناس.

ويقال: إنه اسم عربي متصل بلفظ «أود»، وتقول العرب: أود العود يؤوده أودًا إذا حناه، وقد كان من آيات الله سبحانه لنبيه داود عليه السلام أنه سبحانه ألان له الحديد، فكان يؤوده أودًا ويثنيه كالعجين بين يديه، كقوله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ (سبأ: ١٠).

قال قتادة: «سخر الله الحديد فكان لا يحتاج أن يدخله نارًا، ولا يضربه بمطرقة، وكان بين يديه كالشمع والعجين، ويقول الإمام الفخر: ألان الله لداود الحديد حتى كان في يده كالشمع وهو في قدرة الله يسير» (التفسير الكبير)، وقيل: «أنه كان يصنع الدرع في بعض يوم يساوي ألف درهم فيأكل ويتصدق» (تفسير القرطبي).

(سليمان) ومعناه: السمو وهو العلو والارتفاع.

ويقال: «إنه اسم عربي متصل بلفظ «سلم»، والسلم عند العرب السلامة والسلام والبراءة، وقد برأه الله سبحانه مما كتبه اليهود مما تتلو الشياطين وقولهم أنه كفر كما أخبر القرآن: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ (البقرة: ١٠٢)، وسبب نزولها أنه لما ذكر النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم أن سليمان في المرسلين، قال بعض أحبار اليهود: ألا تعجبون لمحمد يزعم أن ابن داود كان نبيًا ..!! وما كان إلا ساحرًا فنزلت هذه الآية» (زاد المسير).

(شمويل) ومعناه: عطية الله من أنبياء بني إسرائيل بعد موت موسى عليه السلام.

(طالوت) ومعناه: الشريف النبيل، وكان راعيًا واختاره الله للملك لأنه كان أعلم بني إسرائيل يومئذ وأجملهم وأتمهم خلقًا.

(بلقيس) لم يرد الاسم صراحة في القرآن، وقد ذكره المفسرون المسلمون، بينما لم يرد في النصوص الأصلية التي تذكر قصتها، ولا نجد مقابلاً لهذا الاسم في القصص الغربية إلا بلقب «ملكة سبأ»، وهذا الاسم ينتشر في اليمن حتى وقتنا هذا، وربما يكون سبب هذا ما قاله قتادة عنها: ما كان أعقلها في إسلامها وشركها . . !!

(أوريا) ومعناه: النار والنور وهو قائد في جيش داود عليه السلام.

لقد علمنا ديننا الحنيف مبدأ هامًا وهو أدب الحوار مع أهل الكتاب مع عدم المساس بالعقيدة الصحيحة لديننا الحنيف والثوابت الإيمانية والتي لا نقاش فيها.

وهذا ما عناه الإمام أحمد: «من حدث بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصاص جلدته مائة جلدة».

لأن هذا من المكذوب لا محالة، والرجوع إلى الكتاب والسنة هو الأولى لأن فيهما الهداية والصواب.

والإمام أحمد محق كل الحق في قوله لأن ما يرويه القصاص يعد قذفًا بعباد الرحمن، فما بالك بأنبياء الله؟!

داود عليه السلام أحد الأنبياء الذين رد لهم القرآن كراماتهم وفضائلهم، يقول تعالى: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص:١٧).

ولقد أخبر سبحانه عـما أنعم به على عبده ورسوله حيث أتاه من الفضل والنبوة والملك، ومنحه الصوت العظيم فكانت تسبح معه الجبال والطيور، وكان أول من عمل الدروع، كما أخبر القران: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ (سبأ: ١٠).

وفي الآية بعضًا من نعم الله سبحانه ومنها فضل النبوة وتسبيح الجبال معه وإرجاعها لصدى صوته، وكذا تسبيح الطير معه، والكشف عن سر صهر الحديد وتشكيله، مما يسهل صناعة الدروع الحديدية وغيرها.

وفي كلمة «أوبى» إعجاز لأن معناها رجع الصوت أي الصدى ـ المعجم الوجيز ـ وهي أول إشارة في التاريخ لحقيقة علمية ثابتة وهي انعكاس الموجات الصوتية عندما تقابل جسمًا صلبًا وهو في الآية الجبال.

وقد بدأ داود ﷺ حياته بانتصاره ـ بإذن الله ـ على جالوت: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ (البقرة: ٢٥١).

وقد زاده الله تواضعًا وكان يترنم بالتسبيح شكرًا وحمدًا لله، وكانت الريح يسكن عند صوته، ويركد الماء الجاري، والمحموم يعرق، والعليل يشفى.

ولقد كرم سبحانه عبده ونبيه ﷺ بأن أضافه ومعه آله إلى نفسه ـ جلَّ وعلا ـ تكريمًا وتشريفًا لهم، وذلك لأنه قسم يومه على أهله، فلم تكن تأتي ساعة إلا ومن آله قائم يصلي: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سبأ: ١٣).

هل هناك أروع وأصدق من ذلك التوصيف العادل والمنصف؟!

ومع هذا ظلمته الإسرائيليات ونسبت إليه ما لا يليق بنبي كريم، وفسرت حادثة تسور المحراب بتعسف شديد، جاء القرآن لينصفه مبينًا أن تسور الخصمين

محراب داود لا علاقة له بقائده «أوريا» وزوجته، وإنما الفتنة هي سماعه لأحدهما دون الآخر، وأراد الله سبحانه أن يعلمه مبدأ هامًا في الحكم وهو ألا يسمع لخصم دون الثاني، ومادام قد جلس للقضاء بين الناس فلابد أن يستمع للجميع، فقد يكون الغني الذي لم يسمع دفاعه عن نفسه صاحب الحق، والفقير الذي استمع إليه لا حق له، ولهذا خاطبه سبحانه: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (ص: ٢٦).

أين هذا وحكاياتهم المسموعة التي أملتها عليهم نفوسهم المريضة؟!

إن الخطاب وإن كان للنبي داود ﷺ، إلا إنه خاص وأريد به العام وحتى يعلم ولاة الأمور والحكام والقضاة بأن العدل ما هو إلا اتباع الحق الذي أنزله الحق سبحانه وتعالى وجعله اسمًا من أسمائه الحسنى.

ومع هذا فإن داود ﷺ لم يخطئ وذلك لأنه نبي حكمه على اجتهاد فإن أصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد، وهذا من حقه كنبي أن يجتهد فيما لم يرد فيه نص صريح، والوحي قد يقره أو يعدله أو لا ينزل في شأنه بشيء فيكون تقريرًا للحكم.

أي أن الدرس الهام من قصة نسور الخصمين للمحراب هي كما أخبر القرآن فيما بعد في الكتاب الحق: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (النساء: ٥٨).

ومع كل هذا يقال أنه ﷺ ما استطاع أن يملأ عينيه من السماء حياء من أعدل العادلين - جلَّ وعلا - حتى قبض مطمئنًا لمغفرة ربه سبحانه.

وقد رزقه الله سبحانه سليمان ﷺ والذي سار على درب الإيمان والهدى، فقد تربى في كنف نبي، وكان ﷺ يتكلم أكثر من لغة، ليست من لغات البشر

فقط، بل ومن لغات الطيور والحيوانات وغيرها من الكائنات، كقوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ (النمل: ١٦).

وهذا ليس فخرًا وإنما مناجاة لربه سبحانه، شاكرًا له على ما أولاه من نعم، والشكر ابتهال وتسبيح وذكر، ولهذا ذكر ذلك الفضل للناس تعليمًا وإرشادًا لهم، وهذا ما قاله أيضًا عندما رأى عرش بلقيس: ﴿قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (النمل: ٤٠).

وقد أهتم المؤرخون المسلمون بوصف عرش بلقيس، فقد جاء في الكثير من المصادر وخاصة كشاف الزمخشري والذي وصفه بدقة متناهية وأنه من ذهب وفضة وتكسوه الجواهر كالياقوت والزمرد وغيرها من المعادن النفيسة.

ويقول أهل الكتاب: إن سليمان عليه السلام ملك أوتي الحكمة وأنه ليس بنبي، وأنه كان يطلب الدنيا لنفسه.

ويقول القرآن: إنه عليه السلام طلب المغفرة من ربه سبحانه قبل أن يطلب ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، وهذا ليس لنفسه وإنما ليجود على الفقراء والمساكين والمظلومين، وأنه طلب ملكًا ليس في الأرض الشاسعة، وإنه وإن كان قد ملك الأراضي الشاسعة فهذا من فضل الله سبحانه عليه، وأعطاه تسخير الهواء والنار وهما الريح والجن، كقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ (ص: ٣٥).

تلك قصة نبيين كريمين أنصفهما الحق سبحانه وتعالى في محكم كتابه قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (النمل: ١٥).

زكريا عليه السلام
والدعاء الخفي

(زكريا) من ر ك ز - (الركز) الصوت الخفي.

و**(زكريا)** فيه ثلاث لغات: المد والقصر وحذف الألف؛ فإن مددت أو قصرت لم تصرف، وإن حذفت الألف صرفت.

وجاء في بعض المعاجم: **(زكريا)** هو الصوت الخفي، والعالم الحليم الحكيم والذي يذكر الله سبحانه كثيراً.

وكان عليه السلام صلبًا في الدين، ولم يرزق بالولد حتى دعا ربه سبحانه.

(يحيى) ومعناه: الحياة الدائمة الأبدية.

وهو أول من تسمى بهذا الاسم من الخلائق، وكان باكيًا حزينًا من شدة خوفه من ربه تعالى، وكان لين الجانب حسن الخلقة، وقد مات شهيدًا، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، وقد أطلق عليه العلماء: الشهيد الذي يلبس الوبر ويأكل الشجر مخافة الذنب.

(سالومي) وهو مشتق من (سلوام) وهي بركة في أورشليم.

وهما - عليهما السلام - آخر من بعث من أنبياء بني إسرائيل قبل عيسى عليه السلام.

وكل هذه المعاني جاءت في القرآن وخاصة سورة «مريم».

وقد جاء في أولها معنى الاسم وهو «الدعاء الخفي»: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ (مريم: ١-٣).

وأما معنى الاسم من «ركز» فقد جاء في الآية الأخيرة: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ (مريم:٩٨).

وقد تفنن القصاص في قصة زكريا ويحيى ـ عليهما السلام ـ أكثر من غيرها، ففي قصة انفلاق الشجرة لزكريا عليه السلام لإخفائه عن الأعداء، وقد أخذ الشيطان بطرف ثوبه ليدل عليه، يتضح ما فيها من هشاشة وضعف وخاصة أنه لا دليل عليها.

وأما يحيى عليه السلام فهو أكثر الأنبياء الذين جاء ذكرهم في التوراة والإنجيل تجسيدًا في أعمالهم واسمه عندهم (يوحنا المعمدان)، والإسلام يحرم كل هذا العبث لجميع الأنبياء ـ عليهم السلام ـ بدون استثناء، وذلك لأنهم يقومون بتحوير القصة الراقية إلى عمل يتناول جوانب مادية وعاطفية بأسلوب لا يخلو من الهبوط والتدني بحجة الدراما وذروة الصراع، وبهذا ينقلون المقدس إلى المدنس، وذلك باستباحة الوحي الإلهي، واللافت أن من يقومون بهذا العبث أغلبهم من غلاة الصهيونية، فعلى أيديهم كانت البداية في استباحة الأديان وقصص الكتاب المقدس، فأظهروا موسى عليه السلام مرتين صامتًا ثم متكلمًا، ثم تجرأوا وأظهروا السيد المسيح عليه السلام، مستحدثين بعض القواعد لتحريف الثوابت الإيمانية الراسخة، والتأكيد على نقاء الشعب المختار من خلال تحقير الشعوب الأخرى وخاصة الشعوب العربية، وذلك بالتصريح أو التلميح بأن إسماعيل عليه السلام هو أبو العرب أي أنهم من نسل العبيد، وبينما إسحق عليه السلام هو أبوهم أي أنهم من نسل السادة، وأن أرضهم تمتد من الفرات إلى النيل كما وعد الله سبحانه نبيه إبراهيم عليه السلام.!!

والسؤال الهام والذي يجب أن يعرف إجابته كل مسلم غيور على دينه: ما حكم مشاهدة هذه الأباطيل؟

يقول سبحانه: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ (النساء: ١٤٠).

ولا يشك أي مسلم ما في هذه الأباطيل من الكفر بآيات الله والاستهزاء بها، وعليه فإن من يذهب إليها بنفسه ويرضاها بقلبه بما فيها من تكذيب للكتاب الحق وتحريف للكلم عن مواضعه، فإن الحرام هو أقل ما يقع فيه، والخوف أن يصل به إلى النفاق ثم الكفر ـ والعياذ بالله ـ ويحشر يوم القيامة مع المنافقين والكافرين كما أخبرت الآية الكريمة من سورة النساء.

يقول البعض ممن ابتعدوا عن الأجواء الإيمانية وانغمسوا في أماكن اللهو وتأثروا بما يقوله أهل الضلالة والكفر والعلمانية عن حرية الإبداع والتي لا ينكرها الإسلام بشرط عدم المساس بالعقيدة والثوابت الإيمانية وعدم الهجوم على الذات الإلهية أو على رسوله الكريم وصحابته الأخيار أو على القرآن الكريم أو الأنبياء الكرام: لماذا لا نشاهد ونقارن ونفكر ثم نقرر ونحكم؟!

الأستاذ/ عباس محمود العقاد ـ رحمه الله ـ وهو أعظم المفكرين الإسلاميين في العصر الحديث له كتاب بعنوان (التفكير فريضة إسلامية»[1]، وهو هنا يعني التفكير في أعظم كتاب مقروء ركز على قيمة العلم في الضمير الإسلامي، وأعظم كتاب مشاهد عن خلق الله سبحانه وتعالى نبهنا إليه نبينا الكريم ﷺ.

(١) الأستاذ/ عباس محمود العقاد ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ الكاتب الكبير والمفكر الإسلامي وأعظم كتاب العصر الحديث، ١٨٨٩م-١٩٦٤م، ومن مؤلفاته عن الأنبياء: «عبقرية محمد ﷺ» ١٩٤٢م، و«عبقرية المسيح عليه السلام» ١٩٥٣م، و«أبو الأنبياء الخليل إبراهيم عليه السلام» ١٩٥٣م.

أي تفكير وأنت تشاهد إمكانيات هائلة تكلفت الملايين، وإبهار بكل وسائل العلم الحديث، وزهور بديعة ولكنها أزهار الشر والشوك، وفاكهة ناعمة الملمس وطيبة الرائحة ولكن مرارتها أشد مرارة من العلقم، وشموع مضيئة ولكنها حالكة الظلام ستغلق قلبك عن الخير وسمعك عن الحق وستضع غشاوة على عينيك.

ليتهم يرجعون إلى فتوى الشيخ جاد الحق ـ رحمه الله ـ والتي بين فيها حرمة تمثيل شخصيات الأنبياء ـ عليهم السلام ـ لأن لهم من العصمة ما يصونهم عن أن يتمثل بهم أي إنسان، بل وإنه يرى أن ذلك يمتد إلى أصولهم وزوجاتهم وأولادهم، بل وأصحابهم الذين عاصروا الرسالة واسهموا في إبلاغها إلى الناس(١).

وإذا كان هذا رأي علمائنا الأفاضل، فإن حرمة ذلك يمتد إلى اللوحات المرسومة وغيرها(٢).

وأما هؤلاء الذين يتحايلون على هذا الأمر بتحوير القصة إلى عمل آخر مع الاختلاف في بعض التفاصيل وتغيير الأسماء كما حدث مع قصة الكريم عليه السلام، فنقول لهم: اتقوا الله في دينكم . . ؟!.

---

(١) هذا الفن أساسًا يعتمد على المحاكاة والتقليد، مع القدرة على استحضار صور وأحياء الشخصيات بطريق التخييل، ثم التعبير عنه بالكلمة والإشارة، فمن يملك هذه القدرة لتجسيد صفوة الخلق ـ عليهم السلام ـ؟!

(٢) الإسلام حرم تحريمًا قاطعًا ما يسمى (فن التصوير والنحت بالنسبة للأنبياء ـ عليهم السلام ـ) وأيضًا الصحابة رضي الله عنهم برغم حجة من يقومون به بانه يرسم على وجوههم البهجة والبساطة والوداعة ويحيط رؤسهم بهالة القداسة . . !! والحمد لله لم نر شيئًا من هذا فيما يعرف بالفن الإسلامي والذي اقتصر على الزخارف والخط وما يشبه ذلك.

ـ والتصوير حرامٌ على ذوات الأرواح عامة وسواء كان أنبياء أو غيره، وهذا هو الراجح من حكم العلماء في هذه المسألة، يراجع «حكم الإسلام في التصوير» للعلامة ابن باز ـ رحمه الله ـ.

وقد جاء في سبب قتل يحيى عليه السلام أسباب كثيرة، من أشهرها ما رواه عدد من المؤرخين: أن «سالومي» أحبته فأبى عليها، فلما يئست منه تحيلت في أن استوهبته من الملك، فتمنع عليها ثم أجابها إلى ذلك، وبعث بمن قتله وأحضر إليها رأسه ودمه.

والرأي أنه مادام القرآن لم يذكر شيئًا من هذا، فالواجب ألا نستمع لكل هذه القصص، والاقتصار على القرآن العظيم والذي يبين لنا أنه يقص قصصهم والتي هي أحسن القصص للعظة والعبرة حيث عاقبة الصبر سلامة وكرامة.

ومن قصة زكريا عليه السلام نعلم أن ثلاثة تسلك خيطًا واحد: الدعاء واليقين وعدم اليأس، فإن ذكرت واحدة لابد أن تذكر الطرفين الآخرين.

يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة: ٢١٤).

أي أن الجنة ليست بالتمني ولكن بالعمل الصالح والجهد والصبر على البلاء، وأن الأنبياء - عليهم السلام - كانوا أشد بلاءً من جميع الناس.

الدعاء أول الثلاثة وأهمها، دعا به عليه السلام سرًا وهو المأمور به لأنه أبعد عن الرياء، وأقرب إلى الصفاء، وأن الدعاء بالقلب أعمق وأكثر عددًا وأعظم نفعًا، وهذا ما فعله عليه السلام حيث دعا في ذلة ومسكنة في جوف الليل مناديه لا يسمعه أحد غيره سبحانه وتعالى، كما أخبر القرآن: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٩- ٩٠).

وتبين الآية أن استجـابة الدعاء منه ﷺ لمبادرته أبواب الخير ومسارعته في تحصيلها، وطمعًا وخوفًا من الآخرة، ورجاء لرحمة ربه سبحانه وتعالى.

أي الدعاء الخالص مستجاب يقينًا، وهذا ما تعود عليه دائمًا، ولهذا دعا بما هو فيه الاستحالة على قدرة البشر المحدودة، حيث أنه شيخ طاعن في السن وامرأته عاقر، وكانت الإجابة بأن هذا سهل يسير على من أوجده من العدم، كقوله تعالى: **﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾** (مريم: ٩).

ولهذا كانت إجابة المستحيل تحقيقًا لليقين والذي كان يسأله النبي الخاتم ﷺ في الدعاء: **«ويقينًا ليس بعده كفر»** (جزء من الحديث الذي رواه الترمذي).

وكما جاء في الحديث القدسي الجليل: **«يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وأنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا دخل البحر»** (جزء من الحديث الذي رواه ابن شيبة في مصنفه).

هذا هو اليقين بقدرة الله سبحانه الذي يغير نواميس الكون كيف يشاء: أمر النار ألا تحرق، والسكين ألا تذبح، والحوت ألا يمس صاحبه، وأخرج النبوة من بيت الكفر، وأبطل قانون الماء ليصبح أرضًا صلبة، وأحيا الموتى بالموتى، وأخرج الأمن من الخوف.

وهكذا بالدعاء واليقين يصل المؤمن إلى عدم اليأس الذي حرمه الإسلام تحريمًا قاطعًا على كل من آمن بالله سبحانه: **﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾** (يوسف: ٨٧).

يقول العلامة الآلوسي: «لا ييأس من روح الله إلا القوم الذين لا يؤمنون بقدرته سبحانه، لأن المؤمن يعلم أن بعد مضيق الكرب متسع الفرح» (من كتاب روح المعاني).

لقد رأى زكريا عليه السلام رزقًا واسعًا يأتي لمريم بلا تبعة، فدعا أن يرزقه بالولد، وذلك لأنه أيقن أن القادر على الإتيان بالشيء في غير أوانه قادر على الإتيان بالولد في غير حينه.

تلك هي قصة نبيين كريمين: زكريا عليه السلام أحد النجباء السبعة الذين يظلهم الله سبحانه يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله، فهو على رأس: «**رجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**» (جزء من الحديث الصحيح الذي رواه البخاري).

ويحيى عليه السلام وهو رجل من أهل الجنة لم يحمل حقدًا لأحد حتى لمن قتلوه، وكأن النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم كان ينظر إليه وهو يقول: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»، فجمع أربع مقامات من الإحسان: العفو والاستغفار والاعتذار عنهم والاستعطاف لهم.

* * *

المسيح عليه السلام
عيسى بن مريم عبد الله ورسوله

(المسيح) لأنه طاهر من الذنوب، وأنه مشتق من مسح الأرض لأنه لم يكن يستقر في مكان، ويقال: أنه سمي بذلك لأنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برئ، وأن زكريا عليه السلام مسحه بدهن البركة، وأنه كان جميلاً وبه مسحة من الجمال.

وجاء في بعض المراجع: أنه الممسوح بمثل الدهن والبركة، أو كالدرهم الممسوح الذي لا نقش عليه لأنه كان زاهدًا، وأنه كان ممسوح القدمين.

ويقول بعض المؤرخين المسلمين: سمي «المسيح» بهذا الاسم لمسحه الأرض وسياحته فيها وفراره بدينه من الفتنة في زمن اشتد فيه تكذيب اليهود له وافترائهم عليه وعلى أمه ـ عليهما السلام ـ.

ومن الأسماء التي جاءت في دوائر المعارف الغربية: «أبيل الأبابيل» أي راهب النصارى، و«شيلون» أي الذي يأتي بالسلام والطمأنينة، و«مسيا» أي ممسوح ومدهون، و«يسوع» أي الخلاص.

(عيسى) من أجمل المعاني لكلمة «عيسى» ما جاء في وصف النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم لأخيه عيسى عليه السلام: **«أحمر، جعد، عريض الصدر، أدم كأحسن ما يرى من أدم من الرجال»** (رواه البخاري).

فكلمة «عيسى» يقال أنها من أصل عربي متصل بلفظ «العيس»، وفي لسان العرب «العيسى والعيسة» وهي بياض يخالطه شي من الحمرة، أو هو لون أبيض مشوب صفاء في حمرة خفيفة، تمامًا كما وصفه الصادق المعصوم صلى الله عليه وسلم لما رآه ليلة الإسراء والمعراج في السماء الثانية.

(مريم) ومعناه: العذراء المنقطعة عن الزواج، والتي بلغت الصدق مع الله، وقد أجرى سبحانه على يديها الكرامات، الصديقة، ابنة عمران، أخت هارون[1]، والعابدة الناسكة البكر البتول.

وهي الوحيدة التي ذكر القرآن اسمها صراحة في نحو ثلاثين موضعًا، وسميت سورة باسمها وهذا للمعجزة الربانية التي لن تتكرر ولم تتكرر إلى يوم القيامة.

(الإنجيل) ومعناه البشارة والشواهد.

جاءت سورة «آل عمران» وما يقرب من ثلاث وثمانين آية في صدرها للرد على اليهود والنصارى وتفنيد كذبهم ومزاعمهم، وقد كشفت السورة «الزمرة الأولى» وأظهرت حقيقتهم وكشفت عن نواياهم وجناياهم، وما انطوت عليه نفوسهم من خبث ومكر، وأما «الزمرة الثانية» وهم الذين جاءوا في أمر المسيح عليه السلام وزعموا ألوهيته وكذبوا برسالة محمد ﷺ وأنكروا القرآن، ومن الأمور الهامة التي أرشدت إليها السورة الكريمة التحذير للمسلمين من كيد ودسائس أهل الكتاب.

وأما الأعجب والأغرب فهو أمر اليهود من عيسى عليه السلام، كذبوه حيًا، وآذوه ولم يعترفوا به مسيحًا، والآن ينتظرونه ليأتي ويعيد إليهم دولتهم، ثم يفرض سيطرتهم على العالم . . !! وكلمة «المسيح» في العبرية تعني الرجل الذي طهره «يهوه» والكلمة تأخذ في التوراة معاني عامة، فتطلق على الملوك والأنبياء وكل

---

(١) معنى قوله سبحانه: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ (مريم:٢٨)، مبالغة في التعبير لأنها عرفت بينهم عابدة قانتة قصص الأنبياء» للعلامة الشعراوي ـ رحمه الله تعالى ـ (ص٤١٢)، وقال الشيخ أحمد فريد ـ حفظه الله تعالى ـ: «﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾؛ استئناف لتجديد التعبير وتأكيد التوبيخ وتقريره لكون ما جاءت به فريًا وهارون هو النبي المشهور صلوات الله عليه يعنون أنها مثله في الصلاح» «تيسير المنان في قصص القرآن» (ص١٧٩)، دار ابن الجوزي.

الرجال الذين يقومــون بعمل ديني مقدس، وأما المعنى الخــاص لهذه الكلمة عند اليهود فهي: النبي أو المخلص الذي يرسله «يهوه» لإنقاذ بني إسرائيل.

وأما النصارى فـقد زعموا أن لله ولدًا ـ حاشـا لله ـ ويزعمون أن الله ثالث ثلاثة وهم: الذات المقدسة، وعيسى، ومريم.

وهكذا ضاع التوحيد الذي دعا إليه عيسى عليه السلام في ركام الفلسفة والأساطير، وجاء القرآن ليـرد عليهم بأنه عليه السلام ما هو إلا عـبد من عبـاد الله خلقه من تراب: **﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾** (آل عمران: ٥٩).

وفي وسط هذا الظلام الدامس، وقـد انطفـأت مصـابيح الهدى، وصـارت أغلب العقـائد لا تتفق مع مـا جاءت به الأديان السابقـة، ولهذا خـاطب القرآن الذين آمنوا برسالة عيسى عليه السلام أن يؤمنوا بالنبي الخاتم صلى الله عليه وسلم ليكون لهم نصيبين من الرحمة، كـقوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨) لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾** (الحديد: ٢٨-٢٩).

ولقد أنصف القـرآن نبيه وعبـده حين جعله النصارى أكبـر قربان في تاريخ البشرية، وهو الذي جـاء ليسخر من عقـيدة القرابين، فهم يزعـمون أنه مخلص البشرية من الخطيـئة المتوارثة، والقرآن يؤكد أن الله سـبحانه تاب على آدم عليه السلام، وأن الخطيئة الموروثة ليـست من العدل الإلهي ـ تعالى الله علوًا كبيـرًا ـ كما أخذ سبحانه في مـحكم كتابه: **﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ﴾** (النجم: ٣٨-٣٩).

وقد وفى القـرآن المسيح ﷺ حقه، وتحـدث عنه حديث التكريم والإجلال كنبي كريم، وجعل التـصديق بأنه عبد الله ورسوله وكلمـته ألقاها الروح الأمين إلى مريم البتول العـذراء ركيزة من ركائز الإيمان الصحيح كـما جاء في الحديث الذي رواه البخاري.

وقد ذكر القرآن أيضًا معجزاته إجـمالاً وكلها تؤكد صدق نبوته، ولكنه أكد أنها جميعًا بإذن الله سبحـانه وتعالى، بل إنه في آية واحدة كررها مرتين للتأكيد على هذا الأمر ولنفي توهم الألوهية عنه، كـقوله تعالى: ﴿وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ٤٩).

وكذلك أنصفه القرآن حين قرر أنه قام في بني إسرائيل خطيبًا يبشرهم بخاتم الأنبياء ﷺ، ونوه باسمه وذكـر لهم صفته ليعرفوه ويتبـعوه إذا شاهدوه إقامة للحجة عليهم.

ولما كانت معجـزة كل نبي في زمانـه بما يناسب أهله، وقد كان زمن عيسى ﷺ قد اشتهر بالأطباء البارعين وأصـحاب علم الطبيعة، فجاءهم من الآيات بما لا سبيـل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيدًا من خـالق الكون سبحانه وتعـالى، فمن أين للطبيب قـدرة على إحياء الموتى أو مداواة الأكـمه والأبرص، وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم القيامة؟

ومع أن الأطباء الذين عاصروه ﷺ جمعـوا بين الطب والدين والفلسفة، واخـتـاروا المنهج التـجريبـي في الوصول إلى الـعلاج الناجـح في كثـيـر من الحالات، هذا العلاج الذي وصـفه «ابن رشد» في كتـابه (الكليات في الطب» بأنه كان صناعة فاعلة عن مبادئ صـادقة يلتمس بها حفظ بدن الإنسان وإبطال

المرض بأقصى ما يمكن، وتحدث عنه «القفطي» في كتابه (أخبار العلماء بأخبار الحكماء) وذكر فيه أن زمن عيسى عليه السلام كان يسمى «زمن الطب»، إلا أن ما وصلوا إليه لا يعد شيئًا يذكر أمام المعجزة الإلهية التي أجراها الله سبحانه على يد عبده ورسوله عليه السلام.

فمن المصادر الإسلامية ما جاء في تفسير الجلالين: «أنه أختار لهم من الطيور (الخفاش) لأنه أكملها خلقًا، فكان يطير وهم ينظرونه فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتًا، وقد خص بالذكر الذي ولد أعمى والأبرص لأنهما كان لا علاج لهما، ويقال: أنه أبرأ في يوم خمسين ألفًا بالدعاء بشرط الإيمان أن كل ذلك بإذن الله سبحانه» (من تفسير سورة آل عمران).

وأما ما جاء في مصادر أهل الكتاب ويمكن تصديقه إلا أنهم لم يذكروا أنها «بإذن الله»؛ أنه عالج الرجل المفلوج عندما قال له: احمل سريرك، وامش فقام صحيحًا، وعالج صاحب اليد اليابسة فصارت سليمة، وعالج الرجل الأصم فشفاه، ووضع يده على الأعمى فأبصر، ومع هذا لم يذكروا «بإذن الله» . . !!.

تمامًا كما أنكروا عمدًا ما قاله عيسى عليه السلام وهو في المهد: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ (مريم: ٣٠)، ذلك لأن كلمة ﴿عَبْدُ اللَّهِ﴾ تهدم عقيدتهم الفاسدة من أساسها.

تلك قصة نبي كريم من أولي العزم، وقد جعل الإسلام من نزوله علامة من علامات الساعة، وتكذيبًا لما ادعوه باطلاً في دعوى الصلب، كقوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ (النساء: ١٥٧-١٥٩).

وسوف يرى - كما وعده الله سبحانه - عجائب أمة محمد ﷺ ؛ أمة تدخل الجنة بلا إله إلا الله، ويرضون بالقليل ويرضى ربهم سبحانه منهم باليسير، وحتى ليعينهم على قتل اللعين الدجال، ويملأ الدنيا عدلاً ويبطل دين النصرانية بأن يكسر الصليب، ولا يقبل إلا دين الإسلام حيث تهلك كل الملل، ولا تبقى إلا شريعة الدين الخاتم الحنيف لا تنسخ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وأما ما يقولونه - زورًا وكذبًا وبهتانًا - وهو برئ ومنهم بأن الإله المتجسد المسيح عليه السلام - حاشا لله - ينزل إلى الأرض ليقود المعركة الكبرى ضد أمبراطورية الشر، وأن شرط عودته إلى الأرض هلاك عدوهم الأول . . !!

ومن البديهيات والتي لا تحتاج إلى تفكير أننا نعرف ماذا يقصدون بأمبراطورية الشر وعدوهم الأول؟!

يقول سبحانه وتعالى مخبرًا عما يقوله العبد الصالح يوم القيامة: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (المائدة: ١١٧).

ولقد لخصت آية واحدة في القرآن قصة أقرب الأنبياء عهدًا بالنبي ﷺ وأخبر أنه أولى الناس به في الدنيا والآخرة: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (الصف: ٦).

وفي القرآن حديث رائع وتصوير شجي لآلام السيدة مريم - عليها السلام - ومعاناتها وابنها سيدنا عيسى عليه السلام، وهما معًا آية من آيات الله الكبرى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ (المؤمنون: ٥٠).

محمد ﷺ النبي الأمي

(الأمي) بالمعنى المتعارف عليه والمتبادر إلى الذهن الذي لا يعرف القراءة والكتابة، وتلك معجزة له ﷺ، فهو لم يقرأ كتابًا، ولا درس علمًا، ولا صحب معلمًا أو عالمًا، فأتى بما يبهر العقول ويذهل الفطن من إتقان ما أبان وإحكام ما أظهر، فلم يجد في قوله أو علمه أي زلل أو شطط.

ولقد حاول أصحاب الفكر المنحرف من المستشرقين، ومن سار على نهجهم من أهل الإلحاد والعلمانية وممن لا إيمان عندهم، أن يثبتوا بكل الطرق الملتوية بأنه ﷺ كان قارئًا ولا يكتب، وأن ما قاله كان نتاجًا للثقافات المعاصرة في زمانه، وهذا ما ينفيه القرآن: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٨).

وأيضًا ما قاله ﷺ لجبريل عليه السلام في أول نزول الوحي: «ما أنا بقارئ».

ويقول ابن عباس رضي الله عنهما: «كان نبيكم ﷺ أميًا لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب» (رواه أحمد).

ولهذا فإن «الأمي» له قصد يتعلق بمعصومية الوحي، وأن ما جاء على لسانه ﷺ لم يختلط به شيء من أفكار الناس وتصوراتهم، ما عدا شئون الدنيا.

محمد النبي «الأمي» ﷺ لم يأخذ من ثقافة البشر، ولم تؤثر فيه ثقافة أهل الشرق والغرب، لأن الله سبحانه اصطفاه ليبلغ الدنيا آخر بلاغ إلى الخلق أجمعين، فجاء بالمنهج المكتمل لإصلاح مسيرة الإنسانية، إنه مبعوث لشيء

جديد لا صلة للبشر فيه، فإنه عطاء قادم من عند الله سبحانه يعلمه له شديد القوى جبريل عليه السلام.

ولم يعلم الله سبحانه أحدًا من خلقه سوى اثنين: آدم عليه السلام وقد علمه الأسماء كلها، وخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ (النساء: ١١٣).

وتأتي كلمة «الأمي» - كما بينت المعاجم - بمعنى صفة نسب من كلمة «أمة» وكذلك من الجمع «أمم» أي بمعنى «أممي» أي المنسوب إلى كلمة «الأمم».

وقد روى الإمام أحمد في المسند أنه صلى الله عليه وسلم قال: **«أنا محمد النبي الأمي - ثلاثًا - لا نبي بعدي»**، فقد ربط صلى الله عليه وسلم بين أميته وكونه مبعوثًا لكل الأمم.

ولتأكيد هذا المعنى يقول صلى الله عليه وسلم: **«نحن آخر الأمم وأول من يحاسب، يقال: أين الأمة الأمية ونبيها؟ فنحن الآخرون الأولون»** (رواه ابن ماجه).

وفي الحديث ربط صلى الله عليه وسلم بين وصف أمته بالأمية وكونها آخر الأمم.

وأما طلب العلم فلا يحتاج إلى دليل، وخاصة وأن النصوص المتواترة والمشهورة كثيرة في الكتاب والسنة.

أخذ الله سبحانه بالنبوة ميثاقه، وبالإسلام عهده، ونشرت التوراة والإنجيل ذكره، وبين كل نبي صفته بأنه «الأمي»، وعلمه قرآنه وهو الكلمة الباقية الصحيحة على وجه الأرض، ارتشف منه العلماء في الماضي ما شاءوا من العلوم، ومازالت عظمته في كل زمان إلى يوم القيامة، ومع أنه النبي «الأمي» إلا أنه سبحانه بعثه بدين جديد يقرر أن الصفة التي كرم سبحانه آدم عليه السلام هي «صفة العلم»، وليست كما يدعي من حرفوا دينهم بأن الشجرة التي أكل منها هي «شجرة المعرفة» وأنها الخطيئة الأولى ..!!

لقد ظل أهل الإلحاد لسنين طويلة يرددون: من يصدق أن بلادًا صحراوية جافة ليس فيها أنهار وإنما كثبان من الرمال، ستصبح في يوم من الأيام حدائقًا وأنهارًا؟!

وأثبت علماء الجيولوجيا في أواخر القرن العشرين بكل ما لديهم من وسائل التقدم العلمي المذهل وبعد الآلاف من الحفريات، بأن الأرض أول ما بدأت بما يسمى «العصر الجليدي» وكان هذا من ملايين السنين، وأن هذا العصر قد بدأ ثانية في أوائل القرن السابع عشر الميلادي، وأنهم رسموا خريطة جديدة للأرض وفيها تعود جزيرة العرب كما كانت في هذا الماضي السحيق أنهارًا وزورعًا.

من الذي أخبر النبي «الأمي» ﷺ بهذا السر الذي اكتشفه العلم حديثًا؟

يقول ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا»** (أخرجه أحمد في المسند).

ولهذا يسأل الفيلسوف الأندلسي ابن رشد: كيف استطاع النبي «الأمي» ﷺ أن يصل إلى هذه الحكمة؟

ثم يصل ابن رشد إلى هذه الحقيقة: «ويتأكد هذا المعنى بل يصير إلى حد القطع واليقين التام إذا علم أنه ﷺ كان أميًا في أمة أميه عامية بدوية لم يمارسوا العلوم قط، ولا نسب إليهم علم، ولا تداولوا الفحص عن الموجودات على ما جرت به عادة اليونانيين وغيرهم من الأمم التي كملت الحكمة فيهم في الأحقاب الطويلة» (من كتاب «الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة»).

ثم إن ابن رشد يناقش حديثًا صحيحًا وهو موقف الفقهاء من سؤر الكلب، وذلك لأن ليس من سبب النجاسة للإناء بل من سبب الفيروس الذي اكتشفه العلم أخيرًا ويسبب الكثير من الأمراض وآخرها كما يقول أحد العلماء

(العمي)، وأثبت أنه لا قضاء على هذا السم القاتل إلا بالعدد الذي استخدم في الشرع في مواضع كثيرة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال عن النبي صلى الله عليه وسلم: «**إذا شرب الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعًا**» (رواه البخاري في كتاب «الوضوء»).

ومع إن ابن رشد رجل دين فإنه لم يناقش الحديث من الناحية الفقهية، مكتفيًا بما اسهب الفقهاء في شرحه ومنه الدارقطني في (الموطآت)، والشافعي في (الأم)، والمالكية والحنفية وغيرهم.

ولهذا ركز ابن رشد على الناحية العلمية بوصفه طبيبًا بارعًا، وذكر أنه لما كان التراب جنسًا غير الماء جعل اجتماعهما هو الإعجاز في الحديث، ودليله على ذلك أن ابن دقيق تعقبه بقوله «وعفروه الثامنة بالتراب».

وننتقل إلى حديث آخر فيه الكثير من الإعجاز العلمي وخاصة «علم الوراثة» وهو من العلوم الحديثة نسبيًا، فقد روى الإمام أحمد في المسند عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إن النطفة تكون في الرحم اربعين يومًا ثم تصير علقة مثل ذلك ثم تكون مضغة مثل ذلك، ثم عظامًا مثل ذلك، فإذا أراد الله ان يسوي خلقه بعث إليها ملكًا، فيقول الملك الذي يليه: أي رب اذكر ام انثى؟ أشقي أم سعيد؟ اقصير ام طويل؟ اناقص أم زائد؟ أصحيح أم سقيم؟ قال: فيكتب ذلك كله، ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص**»، قال رجل من القوم: ففيم العمل وقد فرغ من كل هذا؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**».

والملاحظ في هذا الحديث أنه قسم الحقائق إلى غيبية وهي عمله ورزقه وأجله وأثره، وأخرى علمية وهي ما أكدها التطور السريع في علم الوراثة ويمكن تلافي الكثير منها باختيار من النساء أفضلهن، والكشف المبكر عن الإقبال على

الزواج وخاصة الأقارب لمعرفة الأمراض المتوارثة من عدمه، وهذا ما عناه النبي «الأمي» ﷺ بقوله: **«اعملوا فكل ميسر لما خلق له»**، أو بينه في حديث آخر عن أنس رضي الله عنه أنه ﷺ قال: **«تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس»** (أخرجه الطبراني بإسناد حسن)[1].

وأما الحديث الصحيح والذي تحدث عنه جماعة من المستشرقين والذين تخصصوا في الأدب العربي، لم يعجبهم التشبيه في الحديث الشريف، واعتبروه تشبيهًا غير بليغ، وحجتهم أن المشبه به نادر وجوده في البيئة الصحراوية؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر، وفر من المجذوم كما تفر من الأسد»** (رواه البخاري في كتاب «الطب»).

بالفعل الأسد من الحيوانات النادرة جدًا في جزيرة العرب، حيث أنه يكثر في الغابات الاستوائية، فلماذا اختار المعصوم ﷺ هذا التشبيه ولم يختر غيره مما يعرفه سكان الجزيرة العربية؟

جاء أحد علماء العرب في أوائل القرن الماضي واكتشف بعد العديد من التجارب وبالمناظير المتناهية في الدقة، أن لكل مرض ميكروب خاص به وله شكل يميزه عن غيره، فمنها ما يشبه العصى والدوائر والشكل الحلزوني وغيرها، وأما ميكروب «الجذام» فإنه يشبه الأسد تمامًا ..!!

ومع هذا فإن الرسول ﷺ كان يحمل الفرار من المجذوم على رعاية خاطره وحتى لا يتألم من مداومة النظر إليه، وأن هذا الفرار منه على الاستحباب والاحتياط.

---

(١) الحديث فيه ضعيف، راجع «السلسلة الضعيفة» للألباني.

ثم يأتي العلم بعد ذلك ويقـرر حقيقة هامة وهي: ترك مـخالطة المجذوم لا من العدوى فقط، ولكن للرائحـة التي تنقل المرض، وهذا ما أكده النبي «الأمي» ﷺ: **«لا يورد ممرض على مصح»** (رواه البيهـقي بإسناد حسن)، وهذا خشيـة انتقال المرض بوجه عـام لمن أطال مجالسة المريض ومـحادثته ومضـاجعته وخـاصة في الأمراض المعدية.

وأما الحـديث الصحيح والذي أثار جـدلاً واسعًا، وركز علـيه المستشـرقون للطعن في السنة النبوية الشريفـة، فهو الذي رواه أبو هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ: **«إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه كله ثم ليطرحه، فإنه في إحدى جناحيه داء وفي الآخر دواء»** (رواه البخاري في صحيحه).

الحديث الشريف فيه مجاز وهو أمر لمقابلة الداء بالدواء، ومع أن العلم أثبت أن الجناح الأيمن به الشفـاء والأيسر به الداء، إلا أن شراح الحديث قـيدوه بعدم تناول الطعام مادام حارًا، وعليه فإنه مادام قد وقع التقييد حمل على العموم.

ولكثرة اعـتراض بعض الجهلة لهـذا الحديث بالذات، قام عـدد من العلماء المسلمين أصحاب الهـمة العالية والغيرة على دينهم بإجـراء العديد من التجارب والتي أثبتت أن الغمس فعـلاً يقضي على الجراثيم، أي أن هناك في الذباب داءً، وفيه أيضًا دواءً يقضي على الداء.

ولماذا هؤلاء الجهلة لا يذكـرون غيره من الأحاديث ومنهـا: عدم التنفس في الإناء خشـية نقل الأمـراض المعدية، وقد رواه البـخاري في (الأشـربة)، وعدم الاغتـسال في الماء الراكد والذي أثبت العلـم أنه ينقل الأمراض المستـوطنة، وقد رواه الترمـذي في (الطهارة)، وعدم الخروج من أرض الطاعـون وقد أثبت العلم أن بعض الأصحـاء قد يكون لديه مـناعة فلا تظهـر عليه أعـراض المرض ولكنه يكون حاملاً له وينقله لغيره، وقد رواه البخاري في (الطب).

يتركون كل هذه الأحاديث الشريفة بما فيها من إعجاز وأنه ﷺ مؤيد بوحي إلهي، ويركزون على حديث شريف متسائلين: كيف يجتمع الشفاء والداء في الجناحين، وكيف يعلم الذباب ذلك من نفسه ويقدم جناح الشفاء أولاً قبل الآخر؟

وقد أجاب ابن الجوزي عن ذلك: «ما نقل عن هذا القائل ليس بعجيب، فإن النحلة تعسل من أعلاها وتلقي السم من أسفلها ـ والحية القاتل سمها تدخل لحومها في الترياق الذي يعالج به السم» (من خواطر ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ).

لقد قابل رسول الله ﷺ حقيقة علمية ثابتة وهي مقابلة الداء بالدواء بأمور مجازية وهي: مقابلة الكبر بالتواضع، ومقابلة الشر بالخير.

ثم لماذا لا يجيب أهل الإلحاد والكفر والضلالة على هذا السؤال: كيف توصل النبي «الأمي» ﷺ إلى معرفة الحقائق الثابتة والتي لم يكتشفها الإنسان إلا بعد نزول القرآن بأكثر من ألف عام؟ إنه وحي السماء . . نزل به أمين السماء على الأمين في الأرض . . كروية الأرض، المشارق والمغارب في كل لحظة على بقعة من الأرض تختلف عن غيرها، انسلاخ النهار من الليل وهما موجودان معًا على سطح الأرض، أسرار تكون السحاب ونزول المطر، اختفاء ألوان الطيف السبعة الواحد تلو الآخر كلما تعمقنا في المحيطات حتى تصبح الظلمة الكاملة، تكون الحديد ليس على سطح الأرض ولكنه وافد غريب وفد إلى الأرض، مكة أم القرى هي مركز اليابسة في العالم، منطقة بيت المقدس أخفض منطقة في العالم، الكون كله يتكون من زوجين وحتى الجماد، الإنسان زائر متأخر جدًا لكوكب الأرض بعد أن سخر الله سبحانه له ما فيها، ضيق الصدر عند الصعود إلى طبقات الجو العليا، ضرب المثل بالبعوضة هذا المخلوق الضعيف العجيب

الصغير في حجمه والعظيم في خلقه لها مائة عين وثلاثة أجنحة مزودة بجهاز حراري وآخر للتخدير[١].

إن لم يكن عنده ﷺ العلم بمعناه الحديث، فإنه عنده أكثر من ذلك وهو الوحي الذي يأتيه من عند الله سبحانه: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ (النجم: ٤-٥).

أما قمة الإعجاز النبوي فهو هذا الحديث الذي يسمى «يوم الذر».

قال الإمام أحمد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: **«إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلاً، قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۝ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾** (الأعراف: ١٧٢-١٧٣)» (مسند أحمد: ١/ ٢٧٢).

ولأهمية هذا الحديث المعجز شرحه الحاكم في (المستدرك)، والترمذي وابن أبي حاتم، وابن جرير، وابن مردويه في تفاسيرهم.

إن ما حدث (يوم الميثاق العظيم) والذي أشهد الله سبحانه مجموع البشر من آدم عليه السلام إلى قيام الساعة على ربوبيته وبراهين وحدانيته.

ولكن كيف يجمع الله سبحانه كل هؤلاء البشر والذي لا يمكن إحصاء عددهم في مكان واحد وهو «عرفة» مع أن الأرض لا تسعهم كلهم؟

---

(١) هذه الحقائق العلمية الثابتة في السور الآتية بالترتيب: الزمر، الرحمن، يس، النور، الحديد، آل عمران، الروم، الذاريات، الإنسان، الأنعام، البقرة.

هذا هو السؤال الذي يحير أهل الكفر والضلال والعلمانية وكل من يسير في طريقهم الذي نهايته جهنم وبئس المصير.

جاء العلم في نهاية القرن الماضي ليثبت أن جميع الجنس البشري يجمعهم نظام واحد وهو «الشفرة الوراثية» التي جعلها الخالق سبحانه في كل خلية من خلايا جسم آدم عليه السلام، ونقلها إلى ذريته من بعده وإلى ذرية ذريته، إلى أن وصلتنا نحن الآن، وستظل تنتقل إلى يوم القيامة.

كيف توصل النبي «الأمي» ﷺ إلى ما أشار إليه العلم عن النظام الوراثي الموحد، والذي داخله شفرة وراثية مميزة لكل نوع من الخلق، وبالنسبة للإنسان أول ما انطبع عليها «لا إله إلا الله»، وهو معنى الحديث المتفق عليه: «**كل مولود يولد على الفطرة**»، وذلك لأن كل إنسان فيه جزئ حي من عهد آدم، وهذا الجزئ أو الذرة المتناهية في الصغر ولذلك أطلق على هذا الحديث «يوم الذر»، لأن كل ذرة شهدت الخلق الأول وشهدت سجود الملائكة لآدم عليه السلام، وشهدت أخذ العهد على نبيه عليه السلام.

ليت المنحرفين عن العقيدة الصحيحة والسائرين على ضدها يتأملون هذا الحديث المعجز، فإن كانت لهم عقول تفكر وقلوب تتدبر وأعين تبصر، سيرون النور واضحًا جليًا مع الصوت الذي يأتيهم من داخل أعماقهم عذبًا جميلاً، هذا إن لم يطفئوا هذا النور بأفواههم ويصمون آذانهم عن: نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

رضينا بالله سبحانه ربًا، وبالإسلام دينًا وشريعة ومنهاجًا، ومحمد ﷺ نبيًا ورسولاً، يقول سبحانه وتعالى يصف هؤلاء القوم الضالين: **﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا**

نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ⑧ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (الصف: ٧-٩).

ويقول سبحانه وتعالى يصف عباده المؤمنين: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (فصلت: ٣٣).

ويمدح سبحانه وتعالى أمة محمد ﷺ ويذم أكثر أهل الكتاب المكذبين لنبيه الخاتم ﷺ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (آل عمران: ١١٠).

خاتمة الكتاب

في حكمة بليغة عجيبة نسبتها كل أمة من الأمم القديمة إلى نفسها، تقول هذه الحكمة: قل لي اسمك، أقول لك من أنت؟

ذلك أن الاسم له أهمية خاصة من حيث المعنى والمفهوم والدلالة، والقرآن أعطى اهتمامًا للاسم، بل وكان يتغير أحيانًا ليتناسب مع الحال والفائدة والنفع، فمثلاً نبي الله «يعقوب» عليه السلام عندما كان يخاطب القرآن أهل الكتاب لا يناديهم «يا بني يعقوب» بل يكون الخطاب «يا بني إسرائيل».

وبينما نجد أن ما جاء في الأسفار القديمة غير مقنع لما يقرره عن هذا التغيير: «كان قد صارع يعقوب حتى طلوع الفجر، وضرب حق فخذه، ومن ثم غير اسم يعقوب بما يناسب حالته، وأخيرًا لم يجبه على سؤاله، لكنه لم يفارقه إلا بعد أن باركه» (سفر التكوين/ ٣٢).

أما ما جاء في القرآن فهو أكثر اقناعًا فهو يذكرهم بالاسم الذي فيه «الله» تنبيهًا لهم بنعمته عليهم وتفضيلهم على الناس في زمانهم، كقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: ٤٧).

وقد جاء في الأسفار القديمة: «إن العمل الوحيد الذي عمله آدم قبل السقوط هو أن دعا بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع الحيوانات البرية» (سفر التكوين/ ٢).

وهذا يتفق مع ما جاء في القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ٣١).

وأما ما جاء في الأسفار القديمة بعد ذلك ما معناه: «أنه أوجد لآدم عملاً يعمله في الجنة ليملأ فراغه، كما أحاطه بأصدقاء من الحيوانات كان يدعوهم بأسماء لهم»، فهذا صحته بعيدة ويتعارض مع الثوابت الإيمانية في وصف الجنة كما جاء في الكتاب والسنة.

ولأن قصص الأنبياء - عليهم السلام - ذكرها القرآن للعظة والعبرة، فإنه لم يهتم في الغالب إلا بذكر اسم كل نبي، وذلك لما للاسم من دور كبير في خلق الشخصية وإعطائها وجودًا واضحًا، وذلك لأن للتسمية أبسط أشكال التشخيص، وكل تسمية نوع من أنواع البعث والإحياء وخلق الفرد، وكأن الاسم لكل نبي هو تلخيص لكل الأحداث في قصته، ولذلك لم يهتم القرآن بذكر أسماء الشخصيات الأخرى لأنه ليس سردًا تاريخيًا.

وأما أسماء النبي محمد ﷺ في القرآن، فيقول ابن القيم: «كلها نعوت ليست أعلامًا محضة لمجرد التعريف، بل أسماء مشتقة من صفات قائمة به توجب له المدح والكمال» (زاد المعاد في هدي خير العباد).

وأسماؤه ﷺ في القرآن نوعان:

أحدهما - خاص به لا يشاركه فيه أحد من الرسل كمحمد والذي سمي به في التوراة، وأحمد وهو الاسم الذي سماه به عيسى ﷺ، وخاتم النبيين، وبالمؤمنين رءوف رحيم، والأمي، والسراج المنير - ومعنى المنير الذي ينير بغير إحراق -.

والثاني - ما يشاركه في معناه غيره من الرسل وهو مختص بكماله فيها كرسول الله ونبيه وعبده والشاهد والبشير والنذير.

ومن إعجاز القرآن أنه جمع في آيتين ست أسماء له ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿٤٥﴾ وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً﴾ (الأحزاب: ٤٥-٤٦).

وقد خاطب القرآن في الآيتين ﷺ «يا أيها النبي»، أو «يا أيها الرسول»، وهذا في كل القرآن، بينما النداء لكل نبي باسمه، وهذا دلالة على أنه لا نبي ولا رسول بعده ﷺ إلى يوم القيامة.

وأيضًا اختص الله سبحانه كل نبي بصفة واحدة من اسم من أسمائه الحسنى فسمى نوحًا «الشكور»، ويوسف «الكريم»، وإبراهيم «الحليم»، وأيوب «الصبور»، وهكذا مع كل الأنبياء - عليهم السلام -، وأما النبي الخاتم ﷺ فقد اختصه بصفتين وهما: «الرءوف» و«الرحيم»، كما أخبر القرآن: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨).

«محمد» هذا الاسم الكريم علم لنبينا ﷺ.

وقد جاء في الحديث: **«لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا العاقب»** (متفق عليه)، والعاقب أي لا نبي بعده إلى يوم القيامة.

«أحمد» وهو الاسم الذي ذكره عيسى عليه السلام، وقد تحدث عدد من العلماء عن سر هذا، ومنهم ابن كثير في (البداية والنهاية)، وابن القيم في (جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام).

«الأمي» صفته ونعته في الكتب السابقة بأنه لا يقرأ ولا يكتب.

وأما قصص الأنبياء - عليهم السلام - فإن القرآن لم يهتم في الغالب بذكر الأسماء لغيرهم سواء كانوا عاصين كابن نوح عليه السلام وهو «كنعان» والذي ظل الوالد الملهوف يبعث إليه النداء تلو النداء، والفتى المغرور يأبى إجابة الدعاء، وأيضًا لم يذكر اسم (واهلة) وهي الزوجة التي شاركت القوم سخريتهم، أو

شقي قوم ثمود وهو (قدار بن سالف)، وأيضًا لم يذكر القرآن اسم زوجة لوط عليه السلام وخيانتها له وهي ليست خيانة في الشرف والعرض ولكنها كانت تخبر القوم عن أضيافه، وهي (واعلة).

والقرآن أيضًا لم يذكر أسماء المطيعين كامرأة أيوب عليه السلام وهي (ليا)، أو امرأة فرعون وهي (آسية)، والتي بشرتها الملائكة بالجنة.

وذلك لأن القرآن ليس سردًا تاريخًا وإنما هو للعظة والعبرة، كما أخبر الله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (يوسف: ١١١).

وقد ذكر القرآن قصص الأنبياء لما فيها من تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم ليتأسى بها فيهون عليه ما يلقاه من الشدائد والمكاره، وتحذيرًا لكفار مكة أن يحل بهم ما حل بالسابقين، وبهذا تكون في قصصهم وهي أحسن القصص عبرة للخلق، وزجرًا لأهل الطغيان إلى يوم القيامة، كما أخبر تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ (يونس: ١٠٨).

وتأمل نهاية البلاغة وكمال الإعجاز وغاية الاختصار في آية واحدة جمعت قصص أشد الأمم فسادًا: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (التوبة: ٧٠).

أي أن سبب عذابهم الظلم بدرجاته الثلاث لغيرهم والأشد لأنفسهم وأعظمه وهو الشرك.

قوم نوح عليه السلام آذوا الله ونبيه والمؤمنين، فلم ينج منهم أحد وحتى الابن العاصي لم ينفعه كونه ابن نبي، لأن المرء لا ينفعه إلا عمله.

وقوم عاد ظلموا عباد الله بأن قطعوا السبيل على قوافلهم وأخذوا أموالهم وبضاعتهم وأزدادوا فسادًا في الأرض، وظلموا أنفسهم بأن تباهوا بقوتهم وجبروتهم وقلاعهم، ثم إنهم بعد كل هذا أشركوا بالله سبحانه وتعالى.

وقوم ثمود وكيف كانت عاقبة التسعة المفسدين في الأرض، وبيان أن الظلم مهما طالت أيامه فلابد له من نهاية.

وقوم إبراهيم عليه السلام ظلموا أنفسهم عندما لم يستمعوا لما بينه لهم نبيهم عليه السلام بأن الله وحده هو الذي خلق ما في الأرض والسموات وأنه لا معبود إلا سواه، وأنهم لو تأملوا آياته سبحانه وتعالى لعرفوا ربهم وآمنوا به.

وأصحاب مدين ظلموا الناس بنقص أشياءهم وسلب أموالهم، وظلموا أنفسهم عندما طلبوا من نبيهم عليه السلام أن يدعو الله ليسقط عليهم كسفًا من السماء، ولم يستمعوا إليه وهو يدعوهم إلى عبادة الله سبحانه وعدم الشرك به.

والمؤتفكات وكان الجزاء من نفس العمل فلما انقلبت فطرة قوم لوط عليه السلام، قلب الله سبحانه عليهم قريتهم وجعل عاليها سافلها.

روى الشيخان عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إن الله ليملي الظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾** (هود: ١٠٢)» (حديث متفق عليه).

الفهرس

من أحدث مطبوعات دار الإيمان

روائع من سيرة الرسول ﷺ

فضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

رحمه الله

جمع وتحقيق

صلاح الدين محمود السعيد

غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩

دار القمة
لتوزيع الكتاب والشريط والسي دي
فاكس: ٥٤٥١١٦٩ ت: ٥٢٢٢٠٠٢



فاكس : ٢٤٣٣٢٤٩
محمول : ٠١٠١٩٠٠٠٣٨٠